بسم الله الرحمن الرحيم

**عشرون يوما في البلاد المقدسة**

**الشيخ بن أحمدو**

**1994**

**البــدايـة**

الساعة الثامنة صباحا بتوقيت اغرينتش من يوم الخميس منتصف ابريل 1994، والطائرة تنساب على مدرج مطار انواكشوط الدولي.

راكب واقف يفتح درجا في سقف الطائرة وآخر يغلق درجا على أمتعة، صعد الطائرة مثقلا بها.

في حين يبحث ركاب آخرون عن أماكن لوضع أمتعة ضاقت عنها دُرَجُ سقف الطائرة والفراغات أسفل المقاعد وكذلك تلك الفاصلة بين صفوف المقاعد.

لم يبق شاغرا في الطائرة إلا الممران الفاصلان بين الصفوف الثلاثية لأرضية الطائرة.

ولما لم يعثر ركاب آخرون على أماكن شاغرة سرعان ما كدسوا أمتعتهم في الممرين مشكلين بها تلالا عفشية تكاد تسد السهلين الفاصلين بين صفوف المقاعد.

ومع اشتداد انسياب الطائرة على المدرج اشتدت زمجرة المحركات مختلطة بصيحات المضيفات الأثيوبيات بإنجليزية، قال زميلي إنها مكسرة، وأنها تزجر الركاب عن سد الممرات أمام سيل الركاب الذي أخذ يتدفق إلى المستراحات رغم نهي المضيفات عن ذلك المسلك أيضا.

ركاب آخرون بدا من خلال هدوئهم أن السفر المعلق في الهواء هو موطنهم المفضل: أخذوا يطالعون جرائد ومجلات...

وآخرون غارقون في صمت وتأملات حالمة.

سرعان ما تناغمت زمجرة محركات الطائرة وصيحات المضيفات مع تراتيل اختلفت نصوصها وغاياتها.

أزيز المحركات يشتد، وصيحات المضيفات تتعالى وسرعة الانسيابات تزداد.

أضواء حمراء تضيء في مقدمة وسقف الطائرة، وصوت مرتفع سريع الإيقاع يطفو على الأزيز والصيحات:

قائلا: شدوا الأحزمة وامتنعوا عن التدخين.

وتترك الطائرة الأرض مرتفعة إلى أعلى.

**حديث بلا بداية وكانت له نهاية**

عمدة ونائب مقاطعة الرياض، أخي وصديقي عمر بن معط الله: شاب مهذب طريف يحب النكتة والفكاهة، لذلك كان كثيرا ما يقدم لنا ومضات مسرحية، وهو خفيف الظل كما يقال أدبيا، مشارك في الحديث النبوي الشريف وفي فروع عديدة من علوم الشريعة.

شاعر يميل إلى نسج قصائد من الشعر لكنها بلغة إنسان ما وراء البحار، يكثر نسجها في بحر قال لي مرة أنه يسمى: "بحر لكزاندرين".

ولقد قلت له حينها أنه بالنسبة لي بحر المحيط الهادي وليس بحر المحيط الأطلسي.

فتساءل:

* لماذا المحيط الهادئ وليس المحيط الأطلسي؟

قلت: لأني ابن المحيط الأطلسي ولدت عدة أميال من شاطئه في الهامش الغربي لسهل تازيازت، لذلك أعرفه جيدا.

النائب والعمدة عمر بن معط الله فاجأني في صباح يوم 25 مارس، ونحن ندخل قاعة جلسات الجمعية الوطنية قائلا:

أهنئك، وأغلب ظني أنه أتبع كلمة "أهنئك" بقوله باللغة الفرنسية: "**Le depute Monsieur**"

* تهنئني بماذا؟
* شيء هام جدا.
* وهو؟

لقد شوقتني لهذا الشيء، أفصح عنه من فضلك، ودعك من اللف والدوران.

* أهنئك بظهور اسمك من بين العشرة المشهود لهم بالجنة.
* عظيم جدا!

هل تنبأت يا صديقي؟

وإن كان تنبؤك لا يغير من الأمر شيئا.

* لماذا؟
* لأن العشرة المشهود لهم بالجنة رضوان الله عليهم هم الذين شهد لهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالجنة وهم معروفون، وبعبارة أخرى هذا المصطلح أطلق على أشخاص بعينهم وهم من كبار صحابته صلى الله عليه وسلم.

ومع ذلك أرجو أن أكون من الذين شهد لهم عليه الصلاة والسلام بالجنة ضمنيا.

* كيف؟
* كأن تنطبق علي – إن شاء الله – في إطار علاقتي بخالقي وضعية شهد صلى الله عليه وسلم لمن يتصف بها بالجنة.
* أنت تفلسف الأمور والفلسفة غير محببة عند الإسلام.
* ذلك ليس على إطلاقه.
* يبدو أنك تريد المزيد من التفلسف.
* ذلك ليس على إطلاقه أيضا.
* هلا وضحت؟
* أريد أن أقول فقط إن الإسلام لا يرفض الفكر الخلاق، ولكنه يرفض الإلحاد، وأرجو أن لا يطول بنا الحال ويخرج بنا النقاش قبل أن تحدثني عن العشرة الذين ظهر اسمي من بينهم، وفي أي مجال ظهر وعن الجنة التي تتحدث عنها.

هل هي جنة الجمعية الوطنية؟

أم جنة البلدية؟

أم جنة مقاطعتنا التي نمثل في البرلمان؟

سقطت منه ضحكة صفراء وتهكم:

* أما الجمعية الوطنية فليس فيها من أوصاف الجنة إلا كونها حفت بالمكاره.

أما البلدية فهي قمامة، لأنها عجزت عن إزالة القمامة عن المدينة.

وأما مقاطعتنا فهي مقاطعتنا.

- عد من فضلك إلى موضوع العشرة وحدثني عنه.

* الأمر في غاية البساطة والأهمية في نفس الوقت، وإذا كان العشرة الذين ذكرت لك ليسو هم العشرة الذين تحدثت أنت عنهم، فهم في غاية الأهمية وموضوعهم له علاقة بالجنة إن شاء الله.

وإلى جانب اسمك ظهرت أسماء من الذين يهيئهم الناس دائما ليكونوا من أهل الجنة.

* يالك من شخص غريب!

أتريد أن تسيل لعابي؟

أو تجعلني في غيبوبة؟

* لا، لا، عافانا الله وإياك، الأمر في غاية البساطة والأهمية في نفس الوقت.
* يالك من شاعر يريد أن ينظم أشطار قصائده من حطام مشاعر الناس!
* أنت أيضا تريد أن تتحول إلى شاعر.
* لا أريد أن أتحول إلى شاعر، ولكن أريد التخلص من الورطة التي وضعتني فيها.

إنك ترفض أن تخلصني مما وضعتني فيه ولكن الرئيس ربما يخلصني منها، فقد حان موعد دخوله مع موكبه المبجل.

* وأي خلاص لك في ذلك؟
* آه، يبدو أنك لا تهتم بما يدور في جمعيتنا الموقرة!

وربما أجد لك مبررا.

* وهو؟
* آه، لأنك غارق يا سعادة النائب العمدة المحترم في قمامة مدينتنا المحترمة.

وسقطت منه مرة أخرى ابتسامة صفراء وأضاف:

* أنت في هذه على حق. ولكن كيف سيخلصك حضور الرئيس وموكبه المبجل من الورطة التي ادعيت أني زججت بك فيها؟
* عندما يصيح البواب: "حضر الرئيس"، سننسى كل ما كان يجول في خواطرنا ونتأهب لاستقبال سر الجمال في برلماننا الموقر.
* ماذا تعني بسر الجمال؟
* ذلك شيء أقايض الإفصاح عنه بمعرفة موضوع العشرة.
* يالك من تاجر ماهر!
* لا أتهرب من ذلك، فبالتجارة بدأت حياتي، وأعتز بها حاليا، خاصة وأن المليون شاعر الذي كان يوشح بلادنا تحول إلى مليون تاجر والبقية تأتي.
* يالك من فكاهي، هذه النكتة التي جاءت منك غلبة ترغمني على الإفصاح عن موضوع العشرة، ولكن لي رجاء أن تفصح أنت أولا عن موضوع: "سر الجمال في برلماننا".
* يالك أنت أيضا من تاجر جشع!

تريد أن تبتزني، أمري لله، سأفصح عن ما طلبت مني:

لك أن تعلم أن أهم شيء يتكرر في برلماننا يضفي عليه طابعا مرحا ويخلصه من الرسمية المطلقة هي تلك الكلمة الخالدة التي تجعل النواب يضحكون وهم يغادرون مقاعدهم تجبرهم الرسمية على الوقوف في جو يطبعه التناقض.

* لقد حيرتني!

كيف؟

ما معنا جو يطبعه التناقض؟

* جو يطبعه التناقض: لأن النواب يقفون وجوبا احتراما للداخل وهم يبتسمون مرغمين بسبب الكلمة الخالدة التي أضحت مثارا للضحك والمرح.
* الآن بدأت تقترب من الإفصاح، ولعلي اقتربت من معرفة "سر الجمال في برلماننا".
* إذن سأسكت.
* لا، لا، قل، قل.
* حسن، بعد قليل سيمرق من الخيام صاحب التشريفات يحمل ملفات الرئيس ولن يعبر الباب حتى يظهر الرئيس والأمين العام وأحد الأعوان ويصيح البواب:
* حضر الرئيس.

فيقف النواب احتراما للرئيس وهم يبتسمون سخرية من الكلمة التي ملوا من سماعها.

* أحسنت لقد وفيت بعهدك، ولم يبق لي الآن إلا أن أوف بالتزامي:

لك أن تعلم أني كنت... و...

لكن موكب الرئيس تقدم نحو الباب وصاح البواب يكرر الأنشودة الخالدة:

* حضر الرئيس.

فوقف النواب ووقفت أنا وزميلي عمر، لكني أندب حظي:

لقد خلصني حضور الرئيس من الورطة لكن في وقت غير مناسب، لكون زميلي بدأ لحظته تلك يحدثني عن موضوع العشرة، ولكن الرئيس حضر عند كلمته الثانية وانقطع الشريط.

جلس الرئيس على كرسيه يطل علينا من علٍ وأشار إلينا بالجلوس فقلت لزميلي:

* أنجز حر ما وعد.
* المشكلة يا أخي في الأناشيد الأخرى الأكثر خلودا.
* فهمت، أنت في هذه على حق، إذن علينا أن ننتظر ريثما نستمع إلى كامل السينفونية وكل القطع العالمية حتى لا نشوش.
* أنت تريد أن... و...

قاطعه الرئيس الذي أخذ يتحدث:

الجلسة مفتوحة.

فقال زميلي:

* الحمد لله، لقد تخلصنا من القطعة الفنية الأولى.

ولكن الرئيس واصل:

* وجدول الأعمال...
* علق زميلي: علينا أن ننام، لأن الرئيس أخذ بداية أنشودة الحياة... و...

واصل الرئيس كلامه:

* وجدول الأعمال ينحصر في نقاش القانون المتعلق بالبرنامج التعاقدي بين الدولة والمؤسسة الوطنية لـ..... والكلمة لمقرر اللجنة الاقتصادية النائب الشيخ بن أحمدو.

تحول الضياء في عيني ظلاما وأنا أحاول أن أتخلص من الكرسي أجر قدمي إلى الكرسي المخصص للمقرر في المنصة الوسطى التي تلي منصة الرئيس.

وقبل أن يتكامل وقوفي سمعت زميلي يقول:

* مرحى لي، لتختبئ في صدري مؤقتا يا موضوع العشرة.

× × ×

كان التقرير طويلا، فخالطني ندم عظيم على كوني لم أضع التقرير في كلمتين أصلا، وما كدت أنتهي منه حتى كانت لائحة طويلة من النواب رأت النور يريد أصحابها التدخل، فكان علي أن أظل مصلوبا على المنصة أرد على استشكالات النواب المتعلقة بالطباعة الرديئة والفواصل والنقاط، وأتلقى احتجاج هذا النائب على عدم ورود تدخله في التقرير أثناء نقاش اللجنة للقانون مع سيادة الوزير المعني.

واحتجج آخر على عدم الفهم الصحيح لمداخلته التي يرى أنها كانت أوضح مما سمع في التقرير...

بقيت أنتظر بفارغ الصبر انتهاء نقاشات النواب لتبدأ ردود الوزير وينتهي دوري وأطلب من الرئيس إعفائي من بقائي مصلوبا أسفله على المنصة وذلك لألتحق بزميلي الذي تصورت أن بقاءه في كرسيه يعود إلى انتظاري.

لكن المفاجأة الكبيرة كانت، وقوف زميلي عمر وخروجه من القاعة، وعندما كان يجتاز آخر الكراسي المخصصة للنواب بل يكاد يلاصق الباب الخارجي التفت وأشار إلي مودعا يبتسم، وأنا أعلم أنه يسخر مني.

إذن لا فائدة، لقد خرج وانتهى الأمر، وقبل أن تكتمل ابروتوكولات طلب الإذن من الرئيس للنزول من أعلى المنصة وموافقته أو رفضه، سيكون عمر استقل سيارته وراح في حال سبيله.

لا فائدة إذن من طلب الإذن والبحث عنه، خاصة وأن الوقت لا يزال مبكرا نسبيا وبداية أوبته إلى منزله في الكلم 10 في مقاطعتنا التي نمثل معا لم يحن بعد، والمهام لديه متشعبة.

كان وزير التجهيز والنقل الوصي على المؤسسة المعنية، ثقيل الظل يتأدب كثيرا أمام النواب ولا يترك شاردة ولا واردة إلا رد عليها بأسلوب مهذب، فمرت الدقائق كالسنوات، ونصف الساعة الذي قضى يتكلم كالقرن بالنسبة لي.

وأخيرا، جاءت السينفونية الوزارية الأبدية:

* هذا ما لدي، أطلب منكم أيها السادة النواب المحترمون التصويت بنعم لمشروع القانون الذي بين أيديكم.

وشكرا سيدي الرئيس

كانت كلماته في أذني هذه المرة سينفونية حقيقية، عذبة حلوة لأنها تؤذن بانصراف عهد وإطلالة عهد آخر هو: السينفونية قبل الأخيرتين وإطلالة الرئيس يقدم تراتيب السينفونية المعهودة:

* الذين يصوتون لمشروع القانون الذي بين أيديكم يرفعون أيديهم.

والذين يصوتون ضده.

المحايدون.

فجاءت السينفونية ما قبل الأخيرة:

* صادقت الجمعية الوطنية على مشروع القانون رقم:....

لتبدأ وقائع الكلمة الأخيرة الخالدة التي تثير في النواب جوا أكثر مرحا وربما ضحكا، وفي أحيان كثيرة يضحك معهم الرئيس الذي يفوه بها.

وربما انتظرها النواب كثيرا والرئيس أكثر من النواب، وانتظرتها أنا هذه المرة أكثر من النواب ومن الرئيس.

حانت الكلمة الخالدة ونطق بها الرئيس يبتسم:

* الجلسة مرفوعة.

\* \* \*

نزلت من المنصة الوسطى أتدرج مع السلم كما يتدرج الجلمود الصخري الذي حطه السيل من علٍ.

ورغم أني كنت دوين الصفا اللائي، فقد كنت أول نائب يخرج من الباب الخارجي واندفعت إلى سيارتي لا ألوي على الطابور الذي كان ينتظرني من أصحاب الحاجات في الباحة الأمامية، وبصعوبة بالغة أرد على ذا وذاك وهذا وهذه......:

* إني عائد حالا.

دلفت في سيارتي أضغط على مفتاح البنزين ودواسة السرعة في نفس اللحظة دون أن أهتم ببدالة السرعة، فكان دوي انطلاق سيارتي يشبه دوي الرعد، مخلفة غبارا كثيفا رغم تبليط الساحة الداخلية للجمعية.

ولاحت مني التفاتة إلى الذين خرجوا من البهو المقابل ينظرون في استغراب ودهشة لتصرفي.

خرجت إلى الشارع الخارجي – شارع الاستقلال – الذي يفصل مباني البلدية المركزية عن مباني الجمعية الوطنية، وفي خضم تفكيري في مكان وجود زميلي عمر، انتابني يأس كبير في العثور عليه، لأني أعلم المشاكل التي تمتد أمامه عند كل صباح والتي منها ما أشترك معه فيه بحكم نيابتنا في البرلمان لنفس المقاطعة، ومنها ما ينفرد به بحكم كونه نائب للعمدة المركزي بالعاصمة، وتلك التي ينفرد بها من أكثر المشاكل تعقيدا.

لكني توكلت على الله، ولم تمض دقيقة حتى كنت أعبر الباب الكبير لمقر البلدية المركزية، ولا أتذكر هل أحسنت إرساء سيارتي أم تركتها في عرض أحد ممرات البلدية الداخلية.

أمام مكتبه حياني بوابه:

* أهلا السيد النائب، تفضل، تفضل، السيد النائب العمدة على مكتبه الآن، لحسن حظك جاء اليوم، إنه هنا.

كان أول انزياح لباب مكتبه كاف لتقابلي معه يجلس على مكتبه، فبادرني:

* كم أنت متلهف لمعرفة موضوع العشرة!
* وهو كذلك، أتريد أن تلتحق بالمرحوم عرقوب أو تنافسه، هات ما عندك.
* القضية بسيطة وفي غاية الأهمية.
* عدت للشعر مرة أخرى؟
* حقا إنك متلهف على معرفة موضوع العشرة!
* إنك تتحول إلى أمِّيٍّ إذا تماديت على هذا المنوال.
* لماذا؟
* لأنك لم تعد تميز بين الشعر وجملة عادية.
* لا، لا، لا لوم علي، كنت اعتقدت أن هذه الجملة التي تكرر علي من الصباح من الشعر الحر أو من الشعر العمودي الذي ينظم في بحر "لكزندرين".

ضحك من جديد وبادرني كما لو كان يريد أن ينهي الموضوع:

* إذن اسمع، القضية بسيطة وغاية في الأهمية.
* أوه، إني أختنق.
* لا تختنق، قلت لك إن القضية بسيطة وغاية في الأهمية.
* اقتلعت جسمي من المقعد الذي كنت جلست عليه واستقليت واقفا.
* لا، لا، لا تذهب ولن تذهب سيأتي الزريق والشاي وتتحول أعصابك إلى ثلج، إنك متوتر، يبدو أن الجلسة لم تكن شيقة.

جلسات هذا البرلمان أضحت مملة، إنها مجرد شريط يعاد.

تفضل، تفضل.

وهو يشير إلى صاحب مقهى البلدية الذي دخل يحمل باقة من المشروبات.

* تفضل، هدئ من أعصابك، القضية بسيطة وفي غاية الأهمية.

جلست مرغما وتناولت عصيرا أصرف نفسي عن الموضوع برمته، لقد تأكدت أثناء تناولي للعصير أن القضية برمتها مجرد دعابة كان زميلي فاتحني بها يرفه بها عني ساعة دخولنا قاعة الجلسات.

وفي خضم حوارنا اكتست في ذهني طابع الجدية، ناسيا طبيعة صديقي المرحة، فقلت:

- جلستنا مع الوالي وحاكم مقاطعتنا والمدير الجهوي للتعليم في شأن مدرسة الكلم 11 متى ستكون؟

تبسم:

* يبدو أنك نفضت يدك من موضوع العشرة.
* أجبني إذا لم تقرر اتخاذ موضوع المدرسة موضوعا عشريا جديدا.
* لا، لا، لا تصرف نفسك عن موضوع العشرة إني أؤكد لك أن موضوع العشرة غاية في الأهمية بالنسبة لك ولي، لأنه يتعلق بك وله علاقة كبيرة بالجنة إن شاء الله.
* لا،
* وتقولها!

لو لم تكن أكبر مني سنا لوسمتك بالبلادة.

* لقد فعلتها بالفعل، فجملة: "لو لم تكن أكبر مني" لا تجرد الجملة من تأدية معناها فأنت فعلا وسمتني بالبلادة، وأنا أشهد لك على ذلك:

لو لم أكن بليدا، لما كنت أجري منذ الصباح وراء دعابة من شاعر يرفه بها عن أخيه.

* يتأكد لدي مرة بعد أخرى أن موضوع العشرة لم يعد يمثل شيئا بالنسبة لك.
* بل يمثل الكثير.
* الكثير من نوع ماذا؟
* من نوع فكاهة مهمة شغلنا بها كل زمن انتظار سماع النشيد الخالد ذلك الزمن الذي كان يمر علينا كالقرن، لقد مر بنا آنفا ونحن لم نشعر به.

أرأيت كم أدت دعابتك دورها وكم هي مهمة.

* يبدو فعلا أن موضوع العشرة أصبح بالنسبة لك من الماضي، وهو سيكون إن شاء الله تعالى، من أهم المحطات التي توصلك إلى رضى الله تعالى.

تنبهت فجأة!

أسترجع جملته: "أهم المحطات التي توصلك إلى رضى الله تعالى".

ركزت أفكر في قصده، وصحت:

* يالي من غبي؟

إنك على حق إن كان ما تبادر لي الآن حقيقة!

أي شيء أهم من موضوع العشرة؟

الله أكبر، هل حقا اسمي من بين العشرة؟

أو من بين الأربعين؟

أو من بين الألف؟

* بل أؤكد لك أن اسمك من بين العشرة وإني أهنئك بهذه المناسبة.
* الحمد لله، وأي شيء سيكون أكثر أهمية من موضوع العشرة؟
* هو كذلك، وكل ما في الأمر أنني كنت بالأمس أمثل عمدة انواكشوط في لجنة تحضير الحج في هذه السنة، وأثناء استعراض مختلف الجوانب المتعلقة به، قدمت لنا لائحة الوفد الرسمي التي أضحت تعرف في الدوائر الحكومية وعالم الرسميات بالعشرة ثم تطور هذا الاسم إلى العشرة المشهود لهم بالجنة تيامنا وتبركا بأولئك الصحابة رضوان الله عليهم وتشبيه هذه بتلك لوجود علاقة بينهما وهي الأهمية ولأن أولئك الصحابة رضوان الله عليهم بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، والحج من أهم الأسباب المؤدية للجنة.

إذن، كان اسمك هو الثاني في اللائحة.

* بشرك الله بالخير، رغم أنك طبختني على نار مشتعلة!

هل بإمكاني أن أعرف التسعة الآخرين بدون آخر نهار ينضم إلى أول النهار الذي بقيت فيه ألهث وراء معرفة موضع اسمي؟

* نعم، هذه مسألة بسيطة.

انتزعت منه الكلام وحوقلت وراجعت:

* لا داعي، لن أنتظر كل هذا المساء وربما الليلة أبحث عندك عن أسماء باقي الوفد، فالمثل الشعبي عندنا يقول: "الأخبار تبقى في الدار" أو أتصل بالوالي يعطيني التفاصيل بعد أن أخذت منك رأس الخيط.
* لا داعي، عليك فقط أن تستمع:

رئيس الوفد: السيد الرشيد ولد صالح، وزير الاتصال والعلاقة مع البرلمان.

قاطعته:

* بل قل العلاقة مع مصلحة الديكور التابعة للرئاسة.
* كيف تصف برلماننا بهذه الصفة؟
* يا أخي البرلمانات في العالم الثالث مجرد ديكور يزين به القائمون على الأنظمة قصورهم التي هي الحكم في وجه زوارهم من الغرب لا أقل ولا أكثر.
* أنت وشأنك، المهم أن الثالث هو: السنتير الكبير المسير المالي لمجلس الشيوخ أواه ولد لوليد.

الرابع: الأمين العام لوزارة التوجيه الإسلامي، ابن عمنا أحمد حامد بن حمديت.

الخامس: العلامة عبد العزيز سي، إمام جامع المغرب.

السادس: العلامة ابن عمنا محمد محمود بن الرباني، نائب المفتي العام بداه بن البصيري.

السابع: العلامة محمد الأمين بن محمد الحسن، إمام جامع الشرفاء.

الثامن: إمام جامع تفرغ زينه... المسومي([[1]](#footnote-2))

التاسع: الأستاذ الفقيه لمرابط ولد محمد الأمين، مدير التوجيه الإسلامي.

العاشر: عبد الرحيم ولد الإمام، مستشار وزير التوجيه الإسلامي المكلف بالحج.

* حميريون يعودون إلى أوطانهم!
* كيف؟
* قبل أن أرد على استشكالك أنوه بتركبة هذا الوفد وخاصة هذه الكوكبة اللامعة من علمائنا الأجلاء.

أما قولي إنهم حميريون يعودون إلى أوطانهم، فالأمر يتعلق بالتاريخ.

* آه، تريد أن تدخل بنا في متاهات التاريخ!
* بحقي أخذت، ألم تدخل أنت بنا اليوم في متاهات عبثية؟
* لنترك المشاكسة جانبا، إني أعتقد أنك الآن تحلق في عالم الحج وربما أنت الآن في الحجاز موطن نزول الوحي، لا تريد العبث ولكنك تريد تطبيق الأحكام المتعلقة بالحج، أليس كذلك.
* ربما، ولكن ماذا تريد أنت أن تقول؟
* أريد أن أتساءل أو أفهم مغزى قولك إن هذه الكوكبة من العلماء والمسؤولين السامين حميريون يعودون إلى أوطانهم؟
* آه، فهمت، الأمر في غاية البساطة وفي نفس الأهمية.
* أه، يقع المشاغب على الشاعر المشاغب.
* حتى يذوق الرجال مر ما سمعوا.
* لا تكن قاسيا، وحاول أن تبين لي رأس الخيط كما فعلت معك.
* القضية بسيطة وفي غاية الأهمية.
* تأكدت الآن أنك لم تحلق في عالم الحج، فأنت ترفث على ما يبدو.

تبسمت غصبا عني ولم يعد بإمكاني إلا أن أجيب على تساؤله:

* الأمر في غاية البساطة والأهمية، فالأمر يتعلق بلمتونية كل:

مني أنا وأحمد حامد بن حمديت ومحمد الأمين ولد الرباني ومحمد الأمين محمد الحسن إمام تفرغ زينه ولمرابط بن محمد الأمين.

ولعلك تعلم أن لمتونه من القبائل الحميرية التي توطنت في هذه البلاد.

* ذلك صحيح. والإمام عبد العزيز سي؟
* ذلك فلاني والفلان من حمير أيضا.
* صحيح،
* أما الرشيد وأواه، فسأعتمد القول الضعيف القائل بيمنية بني حسان وعدم انتمائهم لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وإن كان هذا القول الأخير هو القول المشهور.
* والمستشار عبد الرحيم؟
* ذلك ذاهب للسلام على جده صلى الله عليه وسلم.
* كل الوفد ذاهب للصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويبقى عبد الرحيم غير حميري.
* ألا يكفيك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخواله بني النجار، وهؤلاء حميريون قدموا من اليمن.
* ذلك صحيح، ولكن الخئولة شيء والعمومة شيء.
* أنت كثير الاعتراض، ألسنا في نظام ديمقراطي؟
* بلى،
* إذن دع عنك عبد الرحيم يمثل الأقلية.
* إنك تريد أن تحرجني، فلم يبق لي إلا أن أوافق، ولكن أليس من حقي أن أطرح عليك سؤالا؟
* بلى، ألا ترى معي أنك تريد أن تجعل موريتانيا كلها حميرية؟
* لا، لا!
* إنك تقترب من ذلك!
* لكن قل لي أنت أيها النائب العمدة: إذا طرحنا قبائل صنهاجة الحميرية وبني حسان والفلان من موريتانيا الحالية، فكم يبقى؟
* يبقى الكثير.
* وضحه إذن؟
* تبقى قبائل عربية أخرى كثيرة والسوننكي والولف.
* أما القبائل العربية الأخرى فذلك صحيح وعلى الخصوص قبائل الشرفاء والقبائل العربية الأخرى المنتسبة إلى قريش.
* أما السوننكي فهم هجرة من أحفاد الفراعنة هاجروا من جنوب أسوان واستقروا بهذه البلاد، ويمكن أن نقول أنهم من أحفاد أمراء البدو "الهايكسوس" الذين احتلوا مصر لفترة طويلة وأقاموا بها دولا، بعد أن كانوا قدموا من شبه جزيرة العرب.

أما الولف فالغالبية العظمى منهم تنحدر من أحمد بن أبي بكر بن عامر اللمتوني لأمه فاطمة سيلا ومن أختيه رقية يمكيه بنت أبي بكر بن عامر وإرم بنت أبي بكر بن عامر وبعض القبائل الصنهاجية التي اضطرت لعبور النهر في ظروف تاريخية معينة خوفا من الإبادة أو الاسترقاق. ومن تلك القبائل: ليبو، الاغرمانت "اغرمان"، البافور...

وباتفاق مؤرخي الولف - وكذلك من كتب عنهم من مؤرخي البيظان والمؤرخين الأوروبيين -: أن مؤسس هذه القومية هو أحمد بن أبي بكر الآنف الذكر، وأن ملوك الوالو والجلف ينحدرون منه ومن أختيه.

ولذلك شعب الولف لم يوجد كقومية لها لغتها وثقافتها قبل فترة المرابطين.

* حقا إنك دخلت بنا في متاهات التاريخ.

× × ×

بعض الذين لم يتعودوا على ركوب الطائرة، أخذ وجهه يغلي، عندما شعر مثلنا بضيق في صدره أثناء ارتفاع الطائرة إلى أعلى.

ومن لحظة إلى أخرى يعلو على أزيز الطائرة شبه احتجاج من بعض الركاب، ومع أخذ الطائرة لمسارها العادي، بدأ الوضع يعود إلى مجراه الطبيعي داخل الصندوق الحديدي السابح في الهواء.

فتح بعض الركاب أعينهم بعد أن بقيت مغمضة منذ أن أقلعت الطائرة.

وسأل أحدهم مسافرا آخر بدا عليه أنه اتخذ من جوف الطائرة سكنا:

* كم ستقضي الطائرة في الجو؟
* إثنتي عشرة ساعة.

سقط في يد السائل، وفيما يبدو أنه وجد العزاء في التوقفات التي ستجريها الطائرة في طريقها إلى البلاد المقدسة، أو لم يستوعب جواب الشخص الذي سأله، والذي كان حقيقة طبق السؤال، فلم يجد بدا من السؤال مرة أخرى:

* ما هي المدن التي ستتوقف فيها الطائرة أثناء الرحلة؟
* لن تتوقف، لك أن تعلم أن هذه الرحلة مباشرة من انواكشوط إلى جدة دون توقف.
* أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، رحماك يا رب!
* لماذا كل هذا؟ لماذا لا تتوقف الطائرة أثناء الرحلة؟
* ذلك يزيد عليها التكاليف.
* ولو.
* لكنها تزيد التذاكر أيضا، ما رأيك في ذلك؟

لم يعلق السائل على سخرية الشخص منه وإنما استنجد بالتهويل من طول الرحلة:

* يبدو أن هذه الرحلة ستطول بنا جوا!
* وهل يعقل أن تقضي الطائرة هذه المدة في الجو؟
* بل يمكن أن تقضي أكثر من ذلك، لكن رحلتنا من انواكشوط إلى جدة تكفيها هذه المدة.

لكن الأمور بخير، الطائرة لاشك فيها ما تحتاج له في السفر الطويل وبدون شك أخذوا الوقود اللازم ومستلزمات الغداء وربما العشاء.

* والصلاة؟
* ماذا تعني؟
* أعني صلاة الظهر والعصر والمغرب، إذا كنا سنستمر في الجو طيلة هذه المدة، فأنا قروي لا عهد لي بركوب الطائرة ولكنني أعرف أحكام صلاتي التي اوجب الله علي، ومن أحكامها أن أي فعل حتى ولو كان واجبا سيؤدي إلى عدم تأدية الصلاة في وقتها، لا يجوز الإقدام عليه.
* مثلا.
* آه، صحيح، لك الحق في أن تعرف ذلك.

المثال هنا واضح: الحج واجب، إلا أنه إذا كان سيؤدي إلى ضياع الصلاة بل عدم تأديتها في وقتها فإنه يسقط.

* نصلي في الطائرة.
* آه، أنت من الذين يسلمون بجواز الصلاة في الطائرة؟

لو كنت شخصيا أعلم أن الطائرة لن تتوقف أثناء الرحلة لما قدمت على ما قدمت عليه.

اتضح للشخص أن الذي يحاوره، ربما تنقصه بعض الخبرة في وسائل السفر الحديثة إلى الخارج، ولكنه على اطلاع بما يتعلق بأمور دينه، فخاف أن يطول النقاش ويقوده إلى ما لا رغبة له في الدخول فيه، فابتدره:

* سيدي الحاج سأبسط عليك الأمور، سل العلماء الذين بجانبك، فأنا أحد خبراء التجارة الدولية ومعرفتي باتفاقيات "الكات" أكثر، وكذلك العوامل الكامنة وراء تقلبات أسعار صرف الدولار، وأثر ذلك على التجارة الدولية.

كنت أستمع إلى الحوار الدائر بين الشخصين، فعادت بي الذاكرة إلى ذلك النقاش الحاد الذي برز مع استقلال البلد سنة 1960، وذلك منذ شرعت الدولة الناشئة تنظم رحلات للحج إلى الديار المقدسة.

كنت أستمع إليه وأنا لا أزال صغيرا: ذلك النقاش الذي دار حول جواز الحج في طائرة لا تجري توقفا في البر ليصلي الركاب الصلاة المكتوبة، والذي انقسم فيه الناس إلى رأيين:

رأي يمنع الحج في هذا النوع من الطائرات لأنه سيؤدي عمدا إلى عدم أداء الصلاة في وقتها، والصلاة قبل الحج، فالحج على من استطاع، وهي لا تسقط مادام البالغ في وعيه، والحج يسقط إذا كان سيضيع الصلاة أو كان سيؤدي إلى ضياع النفس أو المال.

* رأي قال بجواز الحج في هذا النوع من الرحلات، لأن الصلاة تجوز في الطائرة السابحة في الجو، من ذلك قول العلامة أحمد حامد بن أبي البحبيني:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وجوز البعض من الكبار لأنه أولى بالاستقبال والاطمئنان للذي عليه |  | صلاة راكب على الطيار من سفن البحر والاعتدال والركعات دون ميد فيه |

واعترض الطرف الأول بأن السجود واجب، والسجود حده المالكيون بقول ابن عرفة: "مس الأرض أو ما اتصل بها من سطح محل المصلي كالسرير بالجبهة".

والطائرة ليست متصلة بالأرض لأنها سابحة في الفضاء.

فالاحتجاج إذن بعدم لمس الأرض أو لمس ما اتصل بها.

فرد الطرف الثاني: بأن الطائرة متصلة بالهواء، والهواء جسم متصل بالأرض.

وهي مساوية تماما للسفينة التي لا خلاف في جواز الصلاة فيها، والسفينة ليست متصلة بالأرض، ولكنها متصلة بالماء والماء متصل بالأرض.

ويبدو أن الطرف الذي يجوز الصلاة في طائرة سابحة في الفضاء هو الذي تغلب في نهاية النقاش، لأن رحلات الحج التي تنظمها الدولة استمرت تنفذ عن طريق هذا النوع من الرحلات التي لا توقف أثناءها.

وذلك لأن العلماء لا يمكن أن يسلموا بحكم إلا إذا وجدوا له نصا أو قياسا...

وتذكرت دفاع العلامة الشيخ بداه بن البصيري عن جواز السفر إلى الحج في هذا النوع من الطائرات التي لا تتوقف أثناء الرحلة، وفتواه التي أصدرها في هذا الصدد والتي أضحت متداولة في قطرنا.

وعادت بي الذاكرة مرة أخرى إلى سنة 1983 أيام دراستي مختصر خليل على شيختي خديجة بنت أحمدو بن بأهية بقرية تنيخفي بازبار الجنوبي، فعندما وصلت هذا المقطع من مختصر خليل سألتها:

* كيف توصل الفقهاء الأوائل إلى أن الهواء غير المرئي جسم، وهم ليست لهم مختبرات ولا أجهزة كاشفة مثل التي عند العلماء اليوم؟

قالت:

* ذلك أنك عندما ترمي عصا أو شيئا له بال في فراغ، تسمع حركة ما رميت محدثة صوتا معينا، وذلك الصوت ناتج عن اصطدام ما رميت بجسم وهو الهواء.

قلت للشخصين:

* هذه الطائرة تقل كوكبة من العلماء الأجلاء من غير المعقول أن يذهبوا لتأدية فرض يؤدي لعدم تأدية الصلاة في وقتها، لذا علينا أن ننتظر تصرفهم عندما يحين وقت الصلاة.

وإن كانت معرفة وقت الصلاة تطرح مشكلة أخرى بالنسبة لي!

قالا:

* كيف؟

قلت:

* نحن الآن نتجه شرقا، وطبقا لحركة الأرض حول نفسها خلال 24 ساعة، فإننا نسابق الساعات والدقائق لنلتقي بالليل الذي يزحف نحونا.

أما في حالتنا العادية أي عندما نكون في حالة سكون أو شبهه فنحن ننتظر قدوم الليل إلينا وطاقم القيادة في الطائرة لا يخبرنا عن التوقيت في المناطق التي تعبرها الطائرة.

فلم يعبآ بما قلت، ربما لعدم فهمه.

لذلك عدت أسأل نفسي قائلا، ولكن بصوت مرتفع نسبيا: إلا إذا كانت هذه الحالة تشملها عبارة خليل: "والظهران والعشاءان...".

ويبدو أن الحاج القروي لفتت انتباهه عبارة خليل، فالتفت إلي يتساءل:

* ماذا تريد أن تقول أنت أيضا؟

وبما أنني أنا أيضا مثل خبير التجارة الدولية لا أريد أن يدخلني الحاج القروي في نقاش عويصات الفقه المالكي، فقلت على الفور:

* أنا أيضا خبرتي بالسياسة أكثر من خبرتي في ما سواها، فهؤلاء العلماء لم يذهبوا في الوفد الرسمي إلا لحل أي مشكلة تطرح في هذا المجال، وإني أقترح عليك من الآن فصاعدا أن ترتبط بهم، إذا لم تكن مثلهم.

ابتسم ولم يزد على السكوت.

وكانت كوكبة العلماء الأجلاء ازدانت في الطائرة بالعلامة:

لبحر بن عبد الودود، والعلامة محمد المختار كاكيه.

والمهم أنه عندما حان وقت صلاة الظهر طبقا للطريقة التي حددوه بها:

قام العلامة محمد المختار كاكيه خطيبا:

- لقد حان وقت صلاة الظهر وعلينا أن نقبل على الصلاة، الممرات ستتسع لنصف الركاب على ما يبدو وعلينا أن نصلي جماعتين.

وهكذا تمت تأدية الصلاة في الطائرة.

قلت - وربما سمعني أحد الأشخاص الآنفي الذكر -:

* "يقولون إن المسلمين بحاجة إلى العلماء حتى في يوم الحشر.

× × ×

خرجت من عند صديقي النائب العمدة عمر، وأنا أحلق في أجواء لا أستطيع التعبير عنها:

سأذهب بعد فترة وجيزة حاجا.

سوف أؤدي فريضة الحج.

سأزور تلك الأماكن المقدسة، الأماكن التي طالما حدثتني عنها أمي وأنا صغير.

وقرأت عنها كبيرا.

شيء رائع، شيء لا يتصور...

وقبل أن أغلق الباب على زميلي في مكتبه، سألني:

هل قدمت طلبا للوزارة؟

أم اقترحتك الجمعية الوطنية؟

* قمت بالإجراءين معا.
* كيف؟
* طلبت من رئيس الجمعية الوطنية أن يقترحني على الوزارة ممثلا للجمعية الوطنية، وأرسل فورا رسالة بهذا الشأن إلى الوزير.

جزى الله عني هذا الرئيس خيرا، وبعد لك قدمت طلبا إلى الوزارة.

وربما يكون لرئاسة الجمهورية دور التأكيد في هذا المنحى.

* يالك من مناضل كبير!

ورفع وجهه إلى أعلى يهزه هزا عنيفا مثل الذي يعاند عطاسا وتمتم:

* آه، نسيت، نسيت، لقد نسيت أنك استقبلت من طرف فخامة رئيس الجمهورية منذ أيام.
* نسيت أم لم تنس، كل ذلك سواء، مع السلامة، ألقاك بخير.

في ساحة البلدية تجمع أفراد من ذوي الحاجات حول سيارتي، ولما كنت أدلف داخلها، كنت أتصور كل واحد منهم وهو يتحدث عن حاجته:

مجرد مرحلة من مراحل تحضير سفري.

تخيلت ذلك الطويل ذو الأسنان المتآكلة مجرد طرد من الملاحف تحاول امرأة حاجة أن تجبرني مروءة على حمله لها على حسابي، لأني كثيرا ما أسمع عن تلك القصة.

وعدة أشخاص اصطفوا أمام باب سيارتي كل ينتظر دوره:

مجرد طابور مزمعي الحج أمام مكتب إجراءات الحج.

انفصلت عن أصحاب الحاجات بصعوبة فائقة، ركب معي بعضهم يريد إيصاله إلى مناطق بعيدة ومتباعدة فيما بينها.

وأخذ شريط تحضير السفر إلى الديار المقدسة ينساب أمامي، طبقا لما كنت أسمع عند الذين يوفقهم الله لتلبية ذلك الأذان الخالد.

وأكبر مشكلة كدرت صفوي أني لم أدرس الحج إبان دراستي لمختصر خليل على شيختي العالمة خديجة بنت أحمدو بن باهية دراسة معمقة، ولأنها لا تزال موجودة أطال الله بقاءها، فكرت في ما إذا كانت صحتها تلك الأيام تسمح لها بالتدريس؟

ولظني أن دراستها للحج أصلا قد تكون غير معمقة كغيرها من الكثير من علماء بلدنا.

إنها إحدى مساوئ التبدي والترحال والبعد عن البلاد المقدسة وما كان يعترض الحاج من الأخطار المؤدية للهلاك:

فقد كانوا لا يدرسون الحج والجمعة وزكاة النقدين وبيع الأهوية، حسب ما صرح به العلامة المرحوم محمد مولود بن احمد فال الموسوي في مقدمة كتابه "الكفاف".

إن الأستاذة خديجة هي الأنسب لي لأدرس عليها الحج في الفترة التي لا تزال تفصلنا عن يوم السفر رغم قصرها، ذلك لأن داري لا تبعد سوى عشرات الأمتار عن دارها في الكلم 8 بمقاطعة الرياض التي أسكن وأمثل في البرلمان.

ولأن النهار لا أجد فيه فرصة كبيرة، فسيكون أول الليل هو الوقت المناسب للدراسة خاصة وأن الشيخة خديجة تدرس عليها محظرة كبيرة متعددة الاختصاصات، ولكن أكثر الذين يدرسون عليها يرتادون محظرتها نهارا.

والمعضلة الأخرى كونها ليست في صحة جيدة آنيا.

ولكن المعضلة التي لم أجد لها حلا تلك اللحظة تتمثل في الجواب عما إذا كانت شيختي درست أصلا الحج دراسة معمقة أم سارت على سنة جيلها الذي عاشت فيه والأجيال التي سبقته.

**المضيفة والضيوف**

استمرت الطائرة سابحة في الفضاء، تناولنا الغداء وكان متوسطا، لا هو بالفاخر ولا هو بالرديء، يُمَيِّزُ ذلك من سافر في الخطوط العالمية وكان من ركاب الدرجة الأولى.

بذلت المضيفات جهدا إضافيا على ما يبدو من أجل راحة الركاب وحل مشاكلهم.

حقيقة لا يمكن إلا أن نعترف أن شركة الخطوط الأثيوبية تختار مضيفاتها طبقا لمسابقة يصعب توفر شروطها في المضيفات:

وإنما نعني الشروط الظاهرة المتمثلة في انسياب القوام وجماله وطول وسواد شعر الرأس وسعة الصدر والعينين وانعدام البطن وتوازن ....؟

لاشك أن الركاب حيال تلك الظاهرة انقسموا ثلاثة أقسام:

* الذين يعيشون على النظرة البطيئة من الرجال، فقد أشبعوا عيونهم في ذلك اليوم.
* أما كوكبة العلماء وبقية الأتقياء الذين يطبقون فحوى:

"الأولى لك والثانية عليك"، فإني أجزم أن نجمات المضيفات شكلن لهم معضلة كبرى، خاصة وأن المضيفات كلفن بخدمة الركاب، يناولن لهم شتى الأغراض يستوي في ذلك الكل.

ومما يصعب الأمر أنهن لبسن فساتين حرم عليها ما تحت منتصف الفخذ، ولا تسأل عن حسن صنع الله فيما حرم على الفساتين.

* أما النساء الحاجات فلاشك حسدنهن إلى درجة الغيرة التي تأكل القلب.

قادني الفضول وأنا ابن الثلاثين أن أطبق ما درست من حدود "التعاريف" لما يستر العورة والمقصود بالعورة.

السائد عندنا أن المرأة كلها عورة، ولكن نظم ابن عاشر المفضل عندنا يقول:

وما عدا وجه وكف الحره يجب ستره كما في العورة

وخليل يقول: وترى من المحرم...

أما ما يستر العورة فيحدده ابن دقيق العيد بقوله: "ساتر العورة كثيف، فإن أبداها كره والشاف كالعدم"، ولكن... اعترض عليه...

وفي الحقيقة ليست المشكلة مطروحة لهن وإنما لنا نحن المقيدون بنصوص الشريعة الإسلامية التي يجب أن نخضع لها.

أما فستان المضيفة فهو كثيف جدا على ما يبدو وليس شافا، ولكن المشكلة كونه يشبه لباس لاعب الكرة ساعة اللعب بل إن الأخير أطول منه وأكثر سترا للصدر والكثير من الذراع عكس الأول الذي أضرب عن الصدر والمنكبين وكل الذراعين.

أما المحدد وكراهيته وما إلى ذلك فلا داعي لتناوله لأن الأماكن المثيرة جدا لم تحظ بالمحدد حتى، وإنما ظهرت كذلك، ليسهل التعرف عليها.

والسؤال المطروح هنا هل المضيفة الفاتنة الشبه عارية هي الأخرى من لوازم السفر في الطائرات التي لا تجري توقفا أثناء رحلتها؟.

وهل من غير الممكن إبدال الغواني بعمالقة من نوع ما نسميه شعبيا "أكَصْكَصَ" لا أرب للنساء فيه، أما الرجال فيتمنونه عند النظرة الأولى لجلب الماء من البئر.

وأنا أعتقد أن الفقهاء كان يمكن أن يضيفوا - للنقاش الذي جرى حول جواز الحج في الطائرة – بعض الأمور الأخرى التي إذا كانت لا تمنع من تأدية الصلاة، ولكنها من غير اللائق وجودها مصاحبة للحج مثل موضوع المضيفات وأشياء أخرى مماثلة.

\* \* \*

الطائرة سابحة في الفضاء، وبعض الركاب نام، وبعضهم يقرأ كتابا، والآخر يقرأ جريدة.

وبعض النسوة المسنات لا زلن يواصلن أدعية السفر.

المسافر الجالس على المقعد الملاصق لمقعدي استعد ليسألني لكنه انشغل عني لما لفت انتباهه، مما شدني أنا أيضا إلى التركيز على ما شغل زميلي:

لقد حدثت أمامنا حركة لم تلبث أن أفصح مصدرها عن شيء شد انتباهنا وكذلك الذين شغلوا المقاعد القريبة منا.

لقد وقف أحد الفقهاء يخطب:

* الآن استعدوا لصلاة العصر، وهكذا جرت صلاة العصر تماما مثل صلاة الظهر.

الطائرة سابحة في الفضاء والطائفة الثانية تتحلل لتوها من الصلاة، وصف المضيفات الفاتنات يزحن الستار الأمامي حاملات الصحون المحملة بالمشروبات.

لكن إمام الطائفة الثانية لا يزال جالسا في موقعه يقرأ التسابيح والأدعية بعد نهاية الصلاة.

قديما قالوا إن أكثر ما يعجب الرجل الموريتاني في المرأة انسيابية الساقين وجمالهما وطول شعر الرأس وسواده.

كما سمعتهم يقولون منذ زمن بعيد أنه لا يقدح في حق العلماء اتصافهم بحبهم للنساء.

عزيزي القارئ، هل تستطيع أن تخمن معي كيف تقابل إمام الطائفة الثانية مع فوج المضيفات الفاتنات الذي أطل عليه من علياء والسيقان لا تبعد عنه إلا عشرات السنتمترات؟

دعنا نخمن أو نلتمس له أحسن المخارج، بل نجزم أنه – إن شاء الله - طبق الأمر الوارد في الآية: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ}.

الطائرة سابحة في الفضاء وطائفة المصلين تعود إلى مقاعدها، وقد بدأت المضيفات الفاتنات في توزيع الأشربة.

**عودة الزمن الجميل**

منزل الشيخة خديجة "امينه" بنت أحمدو بن باهية في الكلم 8 بمقاطعة الرياض يبعد عشرات الأمتار فقط عن منزلي.

بطبيعة الحال ليست هي المرة الأولى التي أدخل فيها ذلك المنزل المحترم، ولكن هي المرة الأولى منذ عدة سنوات، التي أعود فيها إلى هذا المنزل طالبا للانتظام في محظرة مدتها أقل من شهر.

محظرة العالمة خديجة بنت أحمدو في دارها لا تختلف في كثير في الحقيقة عن محظرتها في الخيمة التي ظلت تُدرس فيها في البادية منذ وفاة والدها العلامة أحمدو بن باهيه سنة 1950 حتى سنة 1984، أي سنة انتقال هذه الشيخة ومحظرتها إلى الاستقرار في انواكشوط.

مجموعات من الدارسين من مختلف الأعمار يدرسون مختلف المتون، وكنت هذه المرة الوحيد الذي سيدرس الحج من بدايته مما جعلني أكون "دولة" وحدي([[2]](#footnote-3)).

بعد السلام ومصافحتي لمجموعة من الدارسين، وكانت الشيخة - ساعتها – حسب ما ظهر لي في فراغ، وذلك يعني أن الحاضرين درسوا نصوصهم، فقلت:

* شيختي أريد أن أدرس
* مَشِّي([[3]](#footnote-4))

وبما أنني أعلم أن الشيخة خديجة من شيوخ مشي، فبدلا من أن أتناول النص الذي سأدرس - مع ما أشعر به من تخوف من أن لا تكون دراستها للحج أصلا معمقة - قلت:

* إني سأدرس أحكام الحج في مختصر الشيخ خليل.
* ما ذا قلت؟
* قلت أنني سأدرس أحكام الحج.
* لماذا يا ولدي؟
* لأنني إن شاء الله، بعد قرابة شهر من الآن سأتوجه إلى البلاد المقدسة لتأدية فريضة الحج.
* أنت ستحج!
* نعم.
* الحمد لله، أرجو يا ولدي أن يوفقك الله لذلك، وعليك أن لا تنسانا في الدعاء.

ولكن لماذا لا تذهب إلى بعض شيوخ محاظر انواكشوط؟

* لماذا يا شيختنا؟
* لعل شيوخ تلك المحاظر أدرى مني بأحكام الحج، فأنت تعلم أن هذه البلاد كانت دراسة أحكام الحج فيها نادرة.
* كيف؟

لقد تناول الشيخ ابن عاشر أحكام الحج وكذلك الشيخ خليل وغيرهما من فحول علماء المالكية، والنص الذي بين يدي الآن تعرض لأحكام الحج.

* أعرف ذلك.
* إذن، لماذا تدرس الأبواب الواردة في هذه المتون ويترك باب الحج؟

طرحت عليها السؤال وأنا أعلم الجواب مسبقا، ولكن سألتها لتعلم أني مصر على أن أدرس عليها أحكام الحج في فترة وجيزة.

فأجابت:

* كان علماء هذه البلاد في الأزمنة الماضية يفتون بعدم جواز الحج لما فيه آنذاك من تعرض الأنفس للهلاك. والفرض لا تجوز تأديته بحرام خاصة قتل النفس، أما وقد أصبحت الظروف الآن مناسبة، فقد زال ذلك السبب، ومن غير شك أن علماءنا أصبحوا يُدرسون أحكام الحج لمن أراد، منذ أن أخذت الدولة تنظم قوافل الحج.

أستطيع أن أدرسك أحكام الحج، ولكني أرى أنه عليك أن تذهب إلى شيخ آخر.

* مثل من؟
* محمد بن محمد وغيره من العلماء الكثيرين، نحمد الله ونشكره على ذلك.

تذكرت محمد بن محمد العلامة المجتهد الأصولي، صديق الإمام بداه الذي يسميه ابن تيمية العصر.

ذلك الشخص المنقطع دائما للدراسة والتأليف.

كنا نتحدث في شأنه، ولا أعلم هل كان في إحدى غرف الدار أم جاء من خارجها؟

المهم أنه دخل علينا في الحين، وقلنا جميعا بعد السلام عليه:

- هذا توفيق من الله عز وجل، لقد كانت الشيخة تطلب أن يذهب إليك "فلان" ويريدك أن تدرس له أحكام الحج الواردة في مختصر خليل.

فقال لي:

* مشي.

بدأت أقرأ "القف"([[4]](#footnote-5)) الأول من باب الحج في مختصر خليل وهو يشرح، ولما وصلنا إلى عقد الإحرام عن الطفل، ربما تبين للعلامة محمد بن محمد أنني على درجة من البلادة لم يكن يتصورها، فأعرض عني، ولأننا نعرف أن محمد بن محمد لا يضيع وقته عبثا، وأنه إذا أعرض عن مسألة يكون الحديث فيها معه نوعا من العبث، فقد واصلت دراسة أحكام الحج على شيختي ما قدر الله لي.

وفي مرة قالت:

يقال إن الحج تطبيقي أكثر مما هو نظري، فلا تغني دراسته نظريا عن مرشد هناك يرشد الحاج، ولكن خير ما يُرشد العارف بدل الجاهل.

**مسافرة إلى الشرق ومسافر إلى الغرب**

الطائرة سابحة في الفضاء، والركاب يشعرون في نفس اللحظة أنها تقتحم أو تدخل فيما يشبه الظلمة ذاتها التي تشبه الظلمة التي تتقدم الأمطار الغزيرة قبل سقوطها.

وأخيرا صرح بعضهم:

* الطائرة تدخل الخيوط الأمامية لليل المهاجم للطائرة المقتحمة.

لكن تلك المعركة لم تطل، فقد سطعت أضواء تقتحم علينا نوافذ الطائرة، مما جعل الجمهور يركز في اتجاه النوافذ، في نفس الأثناء شرع صوت في مقدمة الطائرة يتحدث:

* سيداتي، سادتي، نحن الآن نحلق فوق مطار جدة الدولي، لحظات تهبط الطائرة على مدرج المطار...

شدوا الأحزمة وامتنعوا عن التدخين.

لا أعرف كيف أصور شعوري في تلك اللحظة!

عجبا، أنا بلحمي ودمي يقدر لي أن أملأ عينيَّ من بقعة من الحجاز الطاهر واضع رجليَّ على أديمها، وأنا القادم من شاطئ المحيط الأطلسي!

أنا ابن المرابطين الذي يمثل جزءا من آثارهم التي تركوها منذ ما يزيد على ألف سنة على شواطئ محيطهم "المحيط الأطلسي"؟

**× × ×**

صديقي المستشار الثقافي يجلس في مقعد بجانب المقعد الذي يجلس عليه السيد الفقيه مدير التوجيه الإسلامي، يقعان خلفي، حيث أجلس أنا والأمين العام للوزارة، ويبدو أن سيادة المستشار يقوم بتكليف من نفسه بدور مسؤول التشريفات رغم مرافقة الكاتب الخاص لوزير التوجيه الإسلامي للوفد، والذي - إذا كان لابد لأحد أعضاء الوفد من القيام بمسؤولية المراسيم -: يكون هو المناسب للقيام بتلك المهمة.

وكان صديقي وزميلي في الدراسة: سيادة المستشار الثقافي، طيلة الرحلة كلما وجد الفرصة يقحم في الحديث جملة أصبحت محفوظة لدينا، نحن الذين نجلس بالقرب منه وهي:

"إن المراسيم السعودية عادة تأتي بسيارة عبارة عن ربع باص، أي صغير جدا، لا يتسع مع السائق ومسؤول المراسيم إلا لخمسة أشخاص فقط ولا يقبلون عادة ضمن أولئك الأشخاص الخمسة إلا الوزير وإداريي الوزارة وممثل الإذاعة الوطنية".

وكان ممثل الإذاعة هو صديقي المحترم سيد ابراهيم حامدينو، وكان يجلس خلفه في تلك اللحظة ممثل التلفزيون الوطني صديقي الآخر سعد بوه الملقب حمَّوْ.

ولما كرر تلك العبارة عدة مرات تصديت له، ربما لكوني الوحيد الذي تربطني به صداقة قديمة مصدرها الزمالة في الدراسة، وقلت:

* علمنا أن الإداريين أمرهم محسوم، سيادة الأمين العام والسيد مدير التوجيه وأنت، لكن لماذا ممثل الإذاعة؟
* إنه الناطق الرسمي باسم الوفد، وهكذا ينبغي أن يكون لأن السيد الوزير ستجري معه الصحافة المحلية في قاعة الشرف مقابلة، وعلى ممثل الإذاعة أن يراسل بهذه المقابلة فورا.
* ذلك منطقي جدا، يا صديقي المستشار، ولكن ألا تعتقد أن ممثل التلفزيون في هذه الحالة لا يقل أهمية عن ممثل الإذاعة؟ أو بالنسبة للمتحيز وحتى المعتدل أهم، وهو يجلس خلفك؟
* أيها السيد النائب، هكذا جرت التقاليد، ربما لأن التلفزيون جديدة علينا.
* وبقية الوفد؟
* على باقي الوفد أن يستقل باصا صغيرا لكنه سيرافق الباص الكبير الذي سيقل بقية ركاب الرحلة إلى قاعة الاستقبال ومكاتب الإجراءات.
* وربع الباص الذي سيقل معالي الوزير والإداريين إلى أين سيتجه مصحوبا بالسلامة؟
* سيتجه إلى قاعة الشرف.

قبل مشاهدتنا لأضواء المطار كان الحديث من حين لآخر يدور حول هذا المنوال:

سيادة المستشار يصر على رأيه ويدعمه بأن المملكة العربية السعودية ترتيباتها صارمة وهذا الشيء جربه بنفسه، ويحذر من بعض الأساليب التي نتبع نحن أحيانا في مطاراتنا، حيث يحاول البعض أن يكون في موقع لا تؤهله له وضعيته الإدارية أو الدبلوماسية أو شيء من هذا القبيل.

وكنت أنا أكثر بقية الوفد جرأة عليه ربما للصداقة والزمالة التي ربطت بيننا من جهة أو لأني برلماني وهؤلاء مهمتهم الجرأة على الحكومة ومن يتبع لها.

وربما لقي موقفي استحسانا من بقية الوفد، الذي يعده سيادة المستشار بباص صغير يتبع للباص الكبير وفي قاعة فسيحة وإجراءات طويلة، والحرمان من شرف المرور من نعمة الجلوس في قاعة الشرف والارتخاء فيها وتناول المرطبات والحليب وإجراء تصريحات للصحافة، حتى يخلص موظفو المراسيم جوازات أولئك الذين أنعم الله عليهم بالرسمية، ثم يجتازوا في سيارات القنصلية الرسمية بعد دقائق إلى مقر إقامة القنصل التي هي – حسب ما صرح به سيادة المستشار – إقامة كل الوفد الرسمي.

**× × ×**

لم تعد الطائرة سابحة في الفضاء، وإنما بدأت تتخلص منه بسرعة فائقة مقتربة من الأضواء التي أخذت تكبر وتتسع المسافات بينها ولم يلبث بعضها أن اختفى عنا عند ملامسة عجلات الطائرة لمدرج المطار.

وانطلق صوت من غرفة القيادة:

* لقد نزلنا في مطار جدة الدولي، أبقوا في أماكنكم حتى يُعد سُلم النزول.

لكن باب الطائرة فتح وظهر السلم إلى الأسفل يجثم عن قرب منه باص كبير وباصان صغيران متناظران أقرب إلى السلم من الباص الكبير، ولأني كنت الثاني الذي يخرج بعد السيد الوزير الذي هو رئيس الوفد، ولما كنت منشغلا بمنظر المطار أملأ عينيَّ واقعيا من الأرض المحبوبة وأتنسم هواءها الطاهر:

صعد شخص يستقبلنا وهو يردد:

* معالي الوزير ووكيل الوزارة، معالي الوزير ووكيل الوزارة، معالي الوزير ووكيل الوزارة...

علمت من نبرة صوته أنه سعودي ولكنني لم أفهم ماذا يريد، ولأن صديقي سيادة المستشار كان الثالث الذي يخرج وبالتالي كان عند ظهري، ربما ليرتب ما كان يردد طيلة تلك الرحلة، قلت له:

* ماذا يعني هذا الشخص؟

لم يجبني سيادة المستشار على سؤالي، بل أضاف:

* سيادة النائب أنزل، أنزل من فضلك حتى لا تسد السلم عن الوفد وطاقم الطائرة.

شرعت أهبط، والسعودي يهبط أمام سيادة الوزير، يكرر:

* معالي الوزير ووكيل الوزارة.

نظرت صوب مؤخرة الطائرة فشاهدت سيل الحجاج يهبط وأول النازلين يصعد الباص الكبير، ولما تكامل نزول الوفد: سلم السعودي علينا وقدم نفسه أنه مسؤول المراسيم الملكية وأضاف:

* معالي الوزير ووكيل الوزارة.

وأشار إلى أحد الباصين الصغيرين، وأشار بيده في أدب إلينا وإلى الباص الآخر وقال:

* تفضلوا.

فهمت كل شيء، ولأني تعودت على التشريفات بادرت في الصعود إلى الباص الآخر، وقبل أن أتكامل فيه التفت:

كان السيد الوزير والسيد الأمين العام يصعدان بمفردهما إلى جانب مسؤول المراسيم السعودي.

وصعد في أثري بقية الوفد، وبما أنني كنت أول الصاعدين حجزت المقعد الموازي لمقعدي فسألني الكاتب الخاص للوزير وكان خفيف الظل:

* لمن تحجز هذا المقعد؟
* أريده لصديقي وزميلي سيادة المستشار، ألا تراه لا يزال واقفا على أرضية المطار.

وكان سيادة المستشار آخر من يصعد إلى الباص، أشرت إليه:

* مقعدك إلى جانبي.

أجابني يبتسم:

* شكرا، هذه خدمة لا يؤديها إلا الأصدقاء.

جلس بجانبي فسألته:

* هل سيتحرك باصنا أم ينتظر اكتمال ركوب الحجاج في الباص الكبير لنكون خلفهم؟

إلا أن باصنا الصغير تحرك، ولأن طائرتنا توقفت على مدرج قريب من المطار، فلم أنته من مشاكستي لصديقي المستشار حتى توقف الباص الصغير أمام باب البناية.

دخلنا القاعة وكان مكثنا فيها طويلا، وإلى تلك الساعة لم أشاهد من المطار إلا أعمدة الكهرباء والمدرج وواجهة البناية المطلة عليه وداخل القاعة التي خلتها بداية إحدى قاعات مطاراتنا الداخلية.

بعد مدة فتح باب القاعة الداخلي وخرجنا اثنين، اثنين:

وقفت أمام حاجز نصب فوقه جهاز آلي يجلس خلفه شاب حديث السن حليق الرأس تيقنت أنه عسكري، وتقدم نحوي آخر يكاد يماثله، وقال:

* "بِضَاكَةُ صحتك"؟ بكاف معقودة.

قلت:

* وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته

فأعاد علي الطلب قائلا:

* بطاقة صحتك.

لكنه قالها بالإنجليزية.

قلت بالفصحى:

* إنني مواطن عربي من قطر عربي.
* من أي قطر؟
* موريتانيا.
* أوه، بريطانيا؟
* بريطانيا ليست قطرا عربيا، إنها دولة أوروبية عظمى.

تذكرت ذلك التجاهل الذي يلمسه الموريتانيون لدى العرب المشارقة لموريتانيا والذي كنا نطمح أن يكون خف نتيجة لتطور الاتصالات والمواصلات.

ويبدو أن العسكري اهتم بي ربما لكوني قلت أنني من بريطانيا طبقا لما فهم.

أو ربما اعتقد أنني أغالطه، لأني قلت إنني من قطر عربي، وهو موريتانيا.

وهو متأكد أن بريطانيا ليست قطرا عربيا، أما موريتانيا، فيبدو أنه لم يسمع بها قط، فأردف بسرعة:

* جواز سفرك من فضلك.

ناولته الجواز وقرأ بالعربية:

* الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

فتساءل:

* فَـيْـنْ تَكَعْ هذه الدولة؟ بكاف معقودة.
* تقع في بلاد الله الواسعة.

لاحظت أن الشاب الذي يجلس خلف الكومبيوتر يستمع إلى النقاش الدائر بيني وبين زميله، وأنه يبتسم، مما حدا بي إلى التركيز على الشاب الذي يسألني، فوجدت أنه هو الآخر يبتسم، وأن كلا منهما يظهر عليه أنه يتمتع بأعصاب باردة وصدر رحب.

فترك ذلك أثرا طيبا في نفسي ظل يزداد خلال معاملة السلطات السعودية لنا طيلة وجودي في الحجاز، رغم كوني أعرف أنني ثقيل الظل.

أضاف الشاب وهو يمسك الجواز بعد قراءة اسم الدولة التي أصدرته:

* آسف، هذا المطار يؤمه الحجاج من مختلف بقاع العالم، والمملكة ترحب بضيوف الرحمن.
* شكرا للمملكة ولكم جميعا، ولكنني شخصيا أعرف الكثير عن المملكة العربية السعودية، ليس لكونها تضم أقدس بقعة في العالم وأعظمها في نفوس المسلمين فحسب، ولكن لكونها أيضا دولة عربية مهمة تشغل مكانة مرموقة في المنظومة الدولية:

أعرف موقعها الفلكي والجغرافي وحدودها ومساحتها وتضاريسها ونباتاتها وعدد سكانها وخصائصهم من حيث الولادات والوفيات والنمو الطبيعي ومستوى المعيشة... واقتصادها...

فلماذا لا تعرف أنت الشاب العربي المكلف باستقبال الحجاج أن موريتانيا قطر عربي؟

قال الذي يجلس خلف الجهاز:

* حضرة الحاج، أستاذ جغرافيا.
* أضف إلى ذلك أنني أستاذ في التاريخ أيضا، فأنا فعلا أستاذ في التاريخ والجغرافيا.

ابتسم محدثي وناول الجواز لزميله الجالس خلف الجهاز، تفحصه وقال بسرعة:

* العفو، لقد عطلناك، سمحا أيها السيد الدبلوماسي، هذا المكتب لا يستقبل الجوازات الدبلوماسية.
* وصل سعادة الدبلوماسي لفلان، المعذرة، مرحبا بك في مطار جدة الدولي.
* مع السلامة، شكرا لك.

تقدم أمامي حامل جوازي، يمر خلف بقية الوفد الذين يقفون أمام شباب يجلسون خلف أجهزة كومبيوتر لعلها هي الخاصة باستقبال الجوازات غير الدبلوماسية. تقدم بي مرافقي حتى أوصلني إلى شاب يجلس خلف جهاز وناوله الجواز وانصرف.

خاطبني الشاب باحترام يشير إلى مقعد خلفي:

* تفضلوا بالجلوس، هل لديكم بطاقة صحة؟

ناولته بطاقة الصحة، ورغم أن كل الإجراءات ستكون بلا شك مسجلة في الحاسوب ولا ينقصها إلا ملء فراغات بالبيانات التي في جوازي، فقد كانت الإجراءات طويلة ومملة، لقد خلتني نمت في مقعدي، وبعد فترة طويلة نبهني صوته:

* فضيلة الحاج، تفضلوا.

ناولني الجواز وبطاقة الصحة وبطاقة كتبت عليها بيانات وأرقام وسير ورقي طويل استمد طوله من طول الرقم الذي يحمل وأكد الشاب:

* احتفظ جيدا بذلك الرقم، ومع كوننا سجلناه في الجواز فمن الضروري إحضاره عند مغادرتك السعودية.

تقدمت إلى الباب الخارجي وخرجت لأكتشف عالما آخر.

**× × ×**

اكتشفت عالما فسيحا مضاء ممتدا في جميع الجهات، مغطى بسقوف عالية تحملها أعمدة سميكة.

تجمعت في ذلك الفضاء الفسيح أمواج بشرية هائلة:

تجمعات كبيرة وجماعات صغيرة، وأفراد يسيرون في مختلف الاتجاهات.

حمالون، وحاملات.

متاجر.

أماكن خدمات كثيرة: مطاعم، مقاهي، بنوك...

كان أول ما استقبلني من تلك الأمواج البشرية تجمع حجيج عرفت لتوي أنه من حجاج المغرب، ظهر ذلك من خلال اللهجة و"الجلابية"...

في ساحة المطار الفسيحة التقيت بأشخاص من رحلتنا، قلت لهم:

* هذا المطار جميل، وفسيح، وأهله طيبون، ولكن الإجراءات طويلة جدا، جدا... إلى درجة تجعلني لا أستطيع استيعاب الأسباب الكامنة وراء ذلك، هذه الدولة متمرسة على استقبال الحجاج وواضح أنها تسخر إمكانيات بشرية ومادية لهذه المهمة، فلماذا لا تكون الإجراءات أسرع مما شاهدنا؟

ظهر على أحدهم عدم الاكتراث بما قلت، وأضاف:

* أنتم سيأخذكم الله بحقنا، سوف تنتقلون الآن في سيارات القنصلية السريعة إلى إقامتكم في جدة، وستغادرون إلى المدينة المنورة متى شئتم، ونحن سنسجن في نهاية الإجراءات في باص يتجه بنا إلى المدينة المنورة بدون أن نستريح، فنتبع سفر الليل برا بسفر النهار جوا.
* لله في خلقه شؤون: كل يتمرد على منزلته والآخر يحسده عليها.
* كيف؟
* لا، لا، تلك أمور تخصنا نحن أعضاء الوفد.

تركت المجموعة وتحولت إلى سائح في المطار أريد أن أشبع عينيَّ من كل ما تقعان عليه.

وبعد فترة لم أقدرها تقدم نحوي شخص عرفت من لهجته أنه موريتاني، وخاطبني بأدب:

* أنت النائب الشيخ بن أحمدو؟
* كنت كذلك في موريتانيا، أما هنا فسأنتظر بجوابك حتى أعرض فعل ناب على أحد علماء الصرف والنحو، لأعرف من أنا الآن.
* نحن نبحث عنك منذ دقائق، تفضل الوفد ركب في السيارات ولم يبق إلا أنت.
* كم بقي من الليل؟
* إنها الإجراءات يا سيدي النائب.
* صحيح، هي الإجراءات، يا سيدي الذي كان ينبغي أن يقدم نفسه حتى أعرف بماذا أناديه.
* العفو، يا سيدي النائب، أنا موظف بالقنصلية.
* شكرا، تشرفت بلقائك أيها الموظف بالقنصلية.

سار أمامي موظف القنصلية يمخر عباب بحر من البشر، وأكثر ما عرقل سيرنا نحو السيارات، مئات الحمالين يدوسون أمامهم حاملات مكتظة بالعفش.

كانت مواقف السيارات ومواطن الحاملات تحيط بالمطار من الواجهات الأخرى.

لما هممت بالصعود في الحافلة الصغيرة اتضح أنها تابعة للقنصلية الموريتانية وقع بصري على باص ضخم تصعد فيه نساء موريتانيات، وبما أننا الفوج الأخير تأكدت أن إجراءات الوفد الرسمي قليل العدد انتهت مع انتهاء إجراءات بقية الفوج فرفعت يدي ألوح لرجل موريتاني يلبس الدراعة أخذ مكانه في الباص الكبير الذي سيتجه إلى المدينة المنورة مباشرة.

وكان سيادة المستشار يقابلني جالسا على أحد مقاعد الباص الصغير.

قلت:

- شيء رائع، أننا لم نترك الحجاج الذين جاءوا في الطائرة معنا في المطار، يبدو أننا سنغادر المطار في نفس اللحظة.

فرد الكاتب الخاص:

* مكره أخاك لا بطل.

**× × ×**

كانت شوارع جدة فسيحة ومضاءة، والبنايات التي يمر من بينها الشارع الذي يسلكه باصنا الصغير جميلة، لكنني لم أتمكن من اكتشاف حقيقة الأحياء التي يخترقها الباص الصغير، لأن الليل كافر وجاحد لما فيه رغم الإضاءة الكثيرة، ولأنني كنت انشغلت منذ البداية بحديث طويل مع بعض أعضاء الوفد.

كانت دار القنصلية: "فيلا" جميلة ونظيفة والضيافة ممتازة.

في مساء الغد طالب سيادة المستشار الذي نصب نفسه رئيسا للوفد:

أن نغادر برا إلى المدينة المنورة، أو على الأصح من يرغب في المغادرة غدا.

أما الوفد الرسمي الذي اختزله في أربعة بدل عشرة، فسيلتقي بوزير الحج والأوقاف السعودي في جدة وهؤلاء الأربعة هم: السادة: الوزير ومدير التوجيه وسيادة المستشار وممثل الإذاعة الذي ألحقه بالوفد الرسمي وكمل به الأربعة، وعلى السبعة الباقين وهم: الأمين العام للوزارة، وعضو البرلمان، والعلماء الخمسة أن يغادروا برا متى رغبوا ولكن المفضل أن يغادروا في الصباح الباكر.

السيد الوزير، رئيس الوفد تتحول له رئاسة موسم الحج الموريتاني تلقائيا من القنصل بمجرد وصوله إلى جدة، وإذا كان معالي الوزير سيحيل تصريف بعض الأمور فنائبه أولى بها، وقد قيل لنا أن نائبه يكون أحد البرلمانيين اللذين يتم تعيينهما في الوفد الرسمي، وبما أن البرلماني ممثل مجلس الشيوخ لم يستطع السفر لأسباب قاهرة فقد بقيت نيابة السيد الوزير تلقائيا للنائب البرلماني، ولكن سيادة المستشار، ينطلق من نظم وأعراف أخرى خارجة بطبيعة الحال عن القوانين والنظم والأعراف التي تنظم موسم الحج فيما يتعلق بموريتانيا.

انتهزت الفرصة واضعا في الحسبان أنني أصلا قدمت الطلب أريد تأدية فريضة الحج، وليس لممارسة حقي في الأبروتوكولات، وقلت متجاهلا – سلطات سيادة المستشار التي يمارسها عن طريق "الكزرة"([[5]](#footnote-6)):

* يا سيادة القنصل، ضعوني على رأس الراغبين في التوجه غدا إلى المدينة المنورة أو قبل غد إذا كانت لكم سيارة قد تتجه الليلة إلى هناك.

فانا جئت للحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وإني أريد أن أبدأ صلاة الأربعين.

لذلك كنت في اليوم الموالي مع اثنين وسائق تلتهم بنا سيارة صغيرة أنيقة طريق جدة – المدينة المنورة البالغ 400 كلم.

لقد راعني وأنا المولود في سهل تازيازت - وقضيت جزءا من حياتي أجوب سهلها وسهلي تيرس الغربية وتيرس زمور -:

مدى التشابه إن لم نقل التطابق بين مظاهر السطح والنباتات في تلك السهول الآنفة وسهول تهامة التي تخترقها الطريق الذي تسلكه بنا السيارة!

أهو تشابه المظاهر الصحراوية بصفة عامة؟

أم أن هناك عوامل أخرى؟

لقد كانت السيارة تسير بنا وأنا أشعر أنني أخترق سهل تيرس الغربية، وكنت أسأل السائق عن مسميات المظاهر التي نمر عليها، ولقد أتحفني بداية بالرد على كثير منها، لكنني أعترف أني أكثرت عليه الأسئلة.

لقد كان الطريق سيارا "سريعا" والسائق يسير بسرعة فائقة، مما جعلني أتضايق من ارتفاع السرعة، ولما عبرت عن ذلك أفهمني أن الطريق آمن مشيرا إلى سياج من الشباك يحاذي جانبي الطريق، وأضاف أن الشباك يحمي الطريق من الحيوانات ومن عبور السيارات الفجائي، لكن ذلك لم يخفف من انزعاجي من سرعة السيارة.

كان الطريق مقطعا بمحطات تفصل بينها مسافات لم أقدر أطوالها، تتكون المحطة من محطة للمحروقات وبيع العجلات وإصلاحها ومسجد وبقالة... مما جعلنا نتوقف في عدة محطات إما للصلاة أو للراحة وتناول المرطبات.

مرة نبهني السائق:

* هذه المدينة التي تقع عن يسارنا هي مدينة رابغ الصناعية.

وقد لفت انتباهي أن الطريق السيار الذي تسلكه بنا السيارة مر من قربها ولم يخترق أحياءها، مما يؤكد أن وضعه بتلك الصورة مقصود.

هنا تذكرت أهمية الطرق المعبدة عند الموريتانيين وكون بعض المدن أو القرى عندنا تنشأ على جنبات الطرق، بل إن تعبيد طريق يكون عندنا هو العامل الأساسي لنشأة القرى أو المدن الحديثة.

وكون القطع الأرضية المطلة على الطرق المعبدة قيمتها عندنا أضعاف القطع التي تقع قربها إذا لم تكن واقعة على الطرق المعبدة، وكون هذه الظاهرة أضحت إلى حد كبير هي المسؤولة عن ظاهرة "الكزرة" التي أدت بدورها إلى نشأة قرى أو مدن عشوائية لا تخضع لأي ضابط معماري ولا يتوفر أي منزل فيها على رخصة حيازة وبالأحرى سجل عقاري.

بعد اجتيازنا لمدينة رابغ بعدة كيلومترات كانت نوق خلف السياج ترعى شجيرات لاشك أنها شجيرات من الغسويل، ورغم سرعة السيارة الفائقة فقد تفحصت النوق وفصلانها، والسطح والشجيرات والمظاهر التضاريسية الناتئة المتناثرة هنا وهناك القريبة منا وحتى تلك التي تلوح من بعيد.

إنها نفس التلال الانفرادية لتازيازت وتيرس "القلب، الكديه، الظلعه..."، مما حرك شجوني فأنشدت قول الشاعر الشيخ كلاه بمقاسم الأضلاع "امكاسم اظلوع" في تازيازت:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نواصف قور المقسمين كليهما أثرت شجونا في خبال وأنة |  | إلى حيث أم الواديان المدافعا وأجريت من ذكر الحبيب المدامعا |

طلبت من السائق التوقف، وكان شابا مهذبا، فرد على الفور:

* خيرا إن شاء الله أيها السيد النائب؟
* ألف خير وخير، لكن من أي قطر أنت؟
* السيد النائب، أنا من موريتانيا، أعمل سائقا متعاونا مع القنصلية الموريتانية في موسم الحج. إني تحت تصرفكم.
* شكرا لك.

أوقف السائق السيارة فكنت أول النازلين منها، وخاطبت الركاب:

* أنا من مواليد غربي تازيازت، ومنذ سنوات عديدة لم أتمكن من زيارة تلك المناطق الجميلة المحببة إلى نفسي التي ولدت فيها، لاشك أنكم تعرفون وأنتم موريتانيون مثلي وعورة وصعوبة الطريق الرابط بين انواكشوط وانواذيب بل انعدامه على الأصح.

وتعلمون أكثر من ذلك أو يعلم بعضكم أن وسيلة النقل شبه الوحيدة الآمنة بين مدينتي انواكشوط وانواذيب هي الطائرة، وهذه أيضا تعلمون أنها تشهد ازدحاما منقطع النظير رغم زيادة شركة الخطوط الجوية الموريتانية لعدد الرحلات الجوية اليومية بين المدينتين، وهي زيادة متواصلة، لم تحل الأزمة.

إنني أشعر أنني في موضع مسقط رأسي لشدة التشابه بين سهل تازيازت، وهذه المنطقة التي نعبر منذ حين، دعوني أتمرغ على أديم هذه الأرض، إنها أرض مباركة إلى جانب كوني أتمرغ في مسقط رأسي ما دمت أحرم من الوصول إليه في بلادي لصعوبة النقل.

ضحك الركاب وخاطبني السائق بأدب:

* صحيح أيها السيد النائب، ولكن المسافة لا تزال ممتدة أمامنا والسير في النهار أهم من السير في الليل.

عدت إلى السيارة بعد أن هممت بالصعود إلى نتوء صخري قريب من الطريق فمنعني من ذلك تسرع السائق وكون السياج يمنعني من الوصول إلى ذلك النتوء الانفرادي.

تحركت السيارة وأنا أعيد على السائق السؤال عن طول المسافة الفاصلة بين جدة والمدينة المنورة وهو يكرر، كما لو كان يريد أن يشعرني بأنه أجابني عن هذا السؤال عدة مرات:

* سيدي النائب المسافة الفاصلة بين جدة والمدينة المنورة هي 400 كلم كما قلت لكم آنفا.
* صحيح، إنها قريبة من المسافة بين انواكشوط وانواذيب لأنها تقل عن 500 كلم.

سكت السائق وسرح بي الذهول بعيدا، فأنا أخترق مجابات تهامة:

* في سيارة ضخمة من طراز GMC الأمريكية الصنع مكيفة تكييفا عاليا، تسير بي على طريق سيار.
* زادنا من الماء: مياه وعصائر مثلجة نحملها في صائنات للبرودة، كما تتوفر تلك المشروبات في محطات الاستراحة على الطريق السريع الذي نسلكه.

وكان سؤال يلح علي أردت أن أطرحه على زميلي، فشغلني عن ذلك التفكير في مقارنة اختراق طريق جدة – المدينة المنورة وطريق انواكشوط – انواذيب.

ولكن سؤالا آخر هاجمني في خضم التفكير، شغلني عن ذا وذاك، فقد فكرت في العربي الجاهلي الذي افتخر في أحد أيام جزيرة العرب باختراقه لفيافيها!

فكيف سيكون وضعه اليوم إذا عاد يتجول في شبه الجزيرة العربية، سيستحيي من إنشاد بيته الذي اعتبره آنذاك في قمة الروعة، واعتبر هو نفسه في قمة البطولة، وذلك عندما وصف ذلك العربي الجاهلي في إحدى متاهات صحراء جزيرة العرب وربما تكون "تهامة"؟

حيث قال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وتيهاء يستاف الدليل ترابها تبطنتها وحدي ولم أرهب الردى |  | وليس بها إلا اليماني مخلف دليلي نجم أو فصيل مخلف |

إذن الصورة التي يرسمها الجاهلي واضحة: صحراء يتيه فيها السائر، حيث لا يجد فيها من دليل يستدل به على الجهة التي يقصد إلا برق يخلف من جهة اليمن، هذه التيهاء التي لا يجد الدليل العارف بها إلا شم أرضها ليميزها برائحة ترابها، أما الجاهلي الذي اقتحمها بشجاعة منقطعة النظير فلا يجد من علامة يستدل بها على سلامة اتجاهه سوى مطالع النجوم أو فصيل خلفه المجتازون ولم يلو عليه لشدة السير وخوفهم من المكث طويلا في تلك المتاهة حتى لا تجافيهم الطريق.

إذن افتخر الجاهلي القديم بشجاعته حيث استطاع أن يسير في بطن تلك التيهاء أو المتاهة.

ولكن يا سيدي العربي القديم، لو عدت الآن لافتخرت عليك قائلا:

وسهول تحاتية في تهامه تشبه سهول مسقط رأسي، كانت تيهاء في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، تبطنتها مع اثنين في تحفة من طراز GMC مكيفة مكتظة بالمرطبات، دليلي طريق سيار آمن وأسلاك حاملة للكهرباء على أعمدة يذكرني تتابعها بتتابع جمال القافلة.

أرأيت أيها العربي القديم كيف اختلف يومي عن يومك، خاصة إذا قلت لك إن تلك لأسلاك الحاملة للكهرباء، كلفت بنقل التيار إلى حواضر حلت محل الأحياء المتنقلة التي ربما كنت أنت تقصد أحدها، فتربعت أمامك تلك التيهاء.

هذا إذا لم تكن غازيا أو باحثا عن إبل ضلت أو صيد...

أما أنا فأتيه عليك بما لم يخطر لك ببال آنذاك، فأنا يا سيدي العربي الجاهلي القديم، ذاهب إلى زيارة قبر أفضل مخلوق خلقه الله، إني ذاهب إلى زيارة قبر خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم.

أرأيت يا أصلي – وأنا فصلك – كيف تبدلت بلادك المباركة بعدك؟

ذلك شيء خصها الله عز وجل به منذ الأزل.

السيارة تتقدم وأنا سابح في أفكاري، تتموج بي في عوالم لا أستطيع رسم بعضها في مخيلتي، تتقدم بنا السيارة، وبتقدمها تتقدم أفكاري وتصوراتي، محاولا تجسيم الصورة الأولى التي ستكون عليها المدينة المنورة وأنا تنساب بي السيارة مخترقة بداية الطرف الذي سيقع في اتجاهنا.

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا سابح في تلك الأفكار حتى تنبهت فجأة على صوت السائق:

* السيد النائب أنظر أمامك، نحن نقترب من "أبيار علي".
* هذه مباني عصرية غاية في الروعة!

هل هي محطة استراحة؟

لم يستطع السائق إلا أن يحول وجهه نحوي بسرعة فائقة ولاحظت أن نظرته إلي شابها شيء تصورت أنه نظرة ازدراء أو نظرة من فاجأه اتصاف شخص بما لم يكن يتصور أبدا أنه يمكن أن يتصف به، وقال:

* لا، لا، هذا يا سيدي النائب هو مكان إحرام أهل المدينة.

لقد اتضح بما فيه الكفاية أن السيد النائب لم يأت للحج قبل الآن!

صحيح، لقد ذكرتم لنا ذلك قبل الآن، لكنني نسيت، ولكن سيدي النائب ألا تتابعون بعض القنوات التي تنقل من حين لآخر مناظر من البلاد المقدسة، خاصة في مواسم الحج ومن العالم بصفة عامة؟

خاصة قناة MBC الحديثة النشأة والتي تنقل من حين لآخر ربورتاجات عن الحج، كما تنقل الصلاة في الحرمين؟

* أصدقك القول إذا قلت لك أني لست من هواة متابعة القنوات التلفزيونية خاصة هذه القنوات المتخصصة التي بدأت تظهر منذ بعض الوقت.

وتستطيع أن تسألني عن سبب عزوفي عن تلك القنوات، ولك الحق في ذلك.

ذلك لأنني في صغري كنت من رواد قاعات السينما في انواكشوط وما تعرضه هذه القنوات، قضيت منه غرضي في طفولتي وبداية شبابي.

ومن ناحية أخرى، وهذا هو الأهم تشغلني انشغالات أخرى تحتل معظم وقتي ولا أجد فرصة كبيرة لمتابعة تلك القنوات التي ربما تكون مفيدة لأمور أخرى أجهلها.

ولكني لا أزال أحتفظ بملاحظتي حول المباني التي مررنا بها الآن، فمكان الإحرام الذي تتحدث عنه يا سيدي السائق، يسمى: "ذو الحليفة" وأنت قلت "أبيار علي".

* سيدي النائب، ذاك هو الاسم القديم، لد أصبح الآن يسمى "أبيار علي".
* المشكلة يا أخي السائق ليست التسمية وحدها!

هذه ليست الحليفة التي كانت تحدثني عنها في صغري أمي، وليست الحليفة التي قرأت عنها في السيرة ولا في ذلك التاريخ المشرق: تاريخ ظهور الإسلام وتاريخ الدول العربية والإسلامية اللاحقة.

إني أريد أن أشاهد صورا لمعالم خزنتها في مخيلتي وأنا صغير، وطورتها قراءتي وأنا كبير، ولكنه تطور ظل يرتبط بالصورة الأولى، وما يمكن أن نسميه الصورة النواة.

* سيدي النائب: المملكة العربية السعودية دولة غنية وملوكها يتسابقون لخدمة الأماكن المقدسة.

ألا تراهم تسموا بذلك الاسم؟

إنهم طوروا الأماكن المقدسة تطويرا مذهلا، فالذي غادر المدينة منذ عقود وعاد إليها اليوم لا يستطيع أن يعرفها لشدة التطور المعماري.

* إنك تخنقني بهذا الذي تتحدث عنه، إني آسف جدا إذا كنت لا يمكنني أن أشاهد تلك المعالم التي كانت تصور لنا قديما.

وإنه لشيء مفرح بل يستحق التنويه والإعجاب أن يهتم الملوك والأمراء والرؤساء بخدمة بيوت الله، والأماكن المقدسة خاصة في الحرمين.

لكن للآثار التاريخية دورها في التأثير الإيجابي الذي لا يمكن نكرانه.

* سيدي النائب، ذلك بناء تاريخ وفن لمعمار وهذا تاريخ حديث له نمطه وفنه المعماري، كما أن الإمكانيات يختلف حجمها وتوفرها من زمان إلى آخر.

- ذلك صحيح ولكن إزالة المعالم التاريخية أيضا مضر بالتاريخ والحضارة، وأكثر ضررا بالمعالم المقدسة التي تهفو إليها نفوس مليار ونصف من البشر.

ألا ترى أن حائطا من طين لمسته يد النبي صلى الله عليه وسلم، أو شجرة قال تحتها، أعظم عند المسلمين من قصور ومباني وناطحات سحاب الدنيا مجتمعة.

* ألم يقطع أحد الخلفاء الراشدين الشجرة التي بايع تحتها الصحابة رضوان الله عليهم النبي صلى الله عليه وسلم خوفا من أن يضل بها الناس؟
* أوه، يا أخي إنك كثير الجدل!

يا أخي أين المدينة المنورة؟

* إننا نكاد ندخلها الآن، ألا تلاحظ هذه الضاحية التي بدأنا نجتاز مبانيها؟
* والمسجد النبوي؟
* أنظر لقد بدأت مآذنه تظهر.
* الله أكبر، أين هي؟
* ألا تلاحظ هذه المآذن التي تزداد وضوحا؟
* ومسجد قباء أليس في مكان خارج المدينة غير بعيد؟
* لقد أضحى الآن ضمن المدينة.

وأثناء توغلنا في المدينة المنورة كانت الشمس تودع الأفق الغربي مما جعل الأضواء تشع في جميع الاتجاهات.

عدت إلى رشدي وواقعي، عدت إلى الزمن الذي أوجد فيه آنذاك، لكنني عدت إلى مساء 16 ابريل 1994 وأنا أريد في نفس الوقت أن أشاهد مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام في يوم من سنة 1هـ إلى غاية انتقاله إلى الرفيق الأعلى عليه الصلاة والسلام.

أريد أن أشاهد الأنصار فوق النخيل وكل الذين في الطرقات وحول المباني يترقبون قدومه صلى الله عليه وسلم.

أريد أن أشاهد سقيفة بني النجار والقصوى...

بصراحة، أريد أن أشاهد المدينة تستقبل الرسول صلى الله عليه وسلم عائدا مع صحابته من إحدى غزواته.

أريد أن أشاهد، أريد أن أشاهد، أريد أن أشاهد، أريد أن أشاهد... وأنا القادم من شاطئ المحيط الأطلسي.

عدت إلى واقعي وكنا لحظتها ناظرنا المسجد النبوي بعد انقضاء صلاة المغرب مباشرة.

ناظرناه بمعالمه الشاهقة وأضوائه الساطعة...

سألت نفسي:

هل أنا حقا في قلب المدينة المنورة، تسير بي السيارة في الطرقات التي كان يسير فيها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم؟

شيء رائع ومثلج للصدر!

حلم يتحقق، وأمل طالما تمنيته!

لك الحمد يا مولاي، سبحان ربي ما أكرمك.

عدت إلى رشدي مرة أخرى:

صحيح، هذه الصور والمشاهد شاهدتها عدة مرات في بعض القنوات التلفزيونية، ولكنني فيما يبدو كنت أدفن حيالها رأسي في الرمال، لأحتفظ في مخيلتي بالصور القديمة الرائعة.

توقفت السيارة أمام بناية مكونة من طابقين في حي قال السائق إنه حي الخندق، وكانت أضواء أعمدة كهربائية تنعكس إلى الشرق من البناية عن قرب على مرتفع صخري قال السائق إنه: جبل سلع.

أحسست بي أسبح في عوالم لم أعرف كنهها، اللهم إلا إذا راجعت بيت الغزالي الذي يقول فيه:

كان ما كان مما لست أدركه فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

أنزل عمال الخدمة في البناية حقائبنا من السيارة وصعدنا إلى الطابق العلوي، وفيه وجدت الصحفي سعد بوه "حمو" سبقني، فقلت له:

* على بركة الله نذهب إلى المسجد النبوي لنبدأ صلاة الأربعين، هيا حتى لا تفوتنا صلاة العشاء كما فاتتنا صلاة المغرب.

أراد السائق أن ينزل معنا، فقلت له:

* أبدا، أبدا، لا داعي للسيارة، من الآن وحتى نغادر المدينة سأذهب إلى المسجد راجلا.

وبادرت أنزل من البناية و"حمو" في أثري.

اخترقنا تجمعات من الموريتانيات الحاجات نثرن أكواما من الملاحف في جنبات البنايات الملاصقة لبناية إقامتنا، وقد تجمعت حول تلك الملاحف نساء كثيرات بالزي السعودي، علمت فيما بعد أنهن سعوديات من أصل موريتاني ومقيمات، موريتانيات جئن يشترين الملاحف.

اجتزنا تلك التجمعات، وكنا نسير في الشوارع والطرقات نستهدي بمنارات المسجد النبوي الشاهقة ذات الأضواء الساطعة زادها الله سطوعا وتألقا.

دخلنا المسجد النبوي قبل صلاة العشاء، ولم نلبث أن أقيمت الصلاة وكان الإمام، فضيلة الشيخ الإمام الحذيفي أطال الله بقاءه الذي تعودت على سماع تلاوته منذ زمن طويل.

إن قراءة الشيخ الإمام الحذيفي تجبر العابث على الخشوع وبالأحرى حاج يدخل المسجد النبوي لأول مرة في حياته قاطعا آلاف الأميال في صندوق بين السماء والأرض، راجيا أن تدركه نفس اللحظة.

لما انتهى فضيلة الإمام من القراءة في الركعة الثانية تأهبت لعقد الركوع لكن الإمام بدأ يدعو قائلا:

"اللهم انصر إخواننا في البوسنة والهرسك، اللهم إنهم حفاة فاحملهم وعراة فاكسهم وجياع فاطعمهم، ومغلوبون على أمرهم فانصرهم"...

كدت اقطع صلاتي!

البوسنة والهرسك في الصلاة!

أي صلاة هذه؟

تمالكت حتى لا أكون أنا وحدي هو الذي أسمع وأشاهد المشهد!

ولكن المصلين بقوا وقوفا والإمام يواصل الدعاء، وفي تلك اللحظة وصل إلى الدعاء للفلسطينيين.

أكملت صلاتي الأولى في المسجد النبوي وتقدمنا نريد المواجهة للسلام على خير البرية صلى الله عليه وسلم، وكان الزحام شديدا، وحق له.

وثمة عدة أشخاص يقفون أمام شباك الروضة الشريفة يمنعون الزائرين من لمس الشباك، ومن حين لآخر يقولون:

* واصل طريقك يا هذا، هذا شباك لا ينفع ولا يضر.

تمنيت وأنا في قلب الزحام أن أجد الفرصة ويسمح لي أولئك أن أناقشهم، وأؤكد لهم أن ذلك الشباك مصنوع من مادة لا تنفع ولا تضر إلا بإذن الخالق.

والرسول صلى الله عليه وسلم نزلت عليه الآية الكريمة: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ}([[6]](#footnote-7))، والآية: {إنَكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء}([[7]](#footnote-8)).. ومن الثابت أيضا أن الصحابة رضوان الله عليهم يتبركون به وبشعره وثيابه...

وأنه إذا كان هناك من العامة من يبالغ في بعض الممارسات – التي هي كلها تعظيما للرسول وطمعا في الاستفادة منه – وهو صاحب الشفاعة الكبرى: فإن المبالغة في منع تلك الممارسات هي الأخرى قد تصل إلى درجة الشطط أو التعسف وفي أحيان منع ما هو جائز، اللهم إلا إذا كان من باب سد الذرائع.

ونحن في المغرب العربي نفهم جيدا هذا المبدأ لأن إمام دار الهجرة هو الذي وضع هذا المبدأ ونحن في المغرب العربي وغرب أفريقيا مالكيون.

خرجت مع زميلي "حَمَّوْ" من المسجد وأنا أطرح السؤال تلو الآخر، مرة على نفسي ومرة على زميلي:

* ما هذه الصلاة التي صلينا؟

هل البوسنه والهرسك وفسطين... من الكلام الغير مناف للصلاة؟

أليس الركوع لتعظيم الرب والسجود هو الذي نسأل الله فيه ما نريد؟

إننا لم نصل إلى الركوع، لا زلنا وقوفا؟...

فأجابني زميلي بهدوء أولاد ديمان المعهود:

* يا أخي لا تتعب نفسك، "هناك صلاة أخباره ماه ياسر([[8]](#footnote-9)) تؤدى في تلك الطرفاء التي تركتها خلفك، لن تجدها هنا".
* أمري لله، نحن في مهد نزول الوحي وأرض العلم والعلماء، ما علينا إلا تطبيق المثل الذي خلفناه وراءنا أيضا وهو كما تعلم: "ديره اعل ركبت عالم وامركه سالم".

تناولنا طعام العشاء وعدنا للمسجد النبوي في حدود الحادية عشرة ليلا: نتنفل مرة ونقرأ القرآن مرة وندعو الله مرة أخرى... حتى صلينا الفجر وعدنا للمنزل.

ولكن بدل أن نتناول طعام الإفطار نام الجميع ولم يستيقظ إلا العاشرة صباحا.

وأثناء تناولي الإفطار استنكرت نوم الصبيحة!

فأجابني بعضهم: أن من يقوم الليل، أي من يشتغل طيلة الليل في العبادة لا حرج عليه في نوم الصبيحة.

قلت ساخرا: حتى ولو كان فيها حرج، فأنا على يقين من أن الشخص الذي استمر طيلة الليل لم ينم سينام رغم أنفه لشدة النعاس.

اتجهنا إلى المسجد قبل تناول الغداء وبعد العودة من صلاة الظهر وتناول الغداء بدأنا زيارة المزارات المعروفة في المدينة:

بدأت مع الوفد زيارة المساجد السبعة المطلة على الشارع الذي يفصل حي الخندق عن الأحياء الواقعة إلى الغرب منه، تنقلنا بين تلك المساجد التي قالوا إنها بنيت على مواقع الحراسة التي وضعها صلى الله عليه وسلم على الخندق أثناء غزوة الأحزاب.

استمرت مدة صلاة الأربعين نصلي الظهر والعصر في المسجد ونقوم بزيارة المزارات ثم نصلي المغرب والعشاء في المسجد ونخرج منه إجباريا حتى الساعة العاشرة ليلا لأمور تتعلق بإدارة المسجد، ننتهز الوقت الفاصل بين صلاة العشاء والوقت المسموح به للرجوع إلى المسجد: لتناول طعام العشاء، ثم نعود إلى المسجد في حدود العاشرة ليلا ونواصل الليل فيه حتى نصلي صلاة الفجر، نتناول طعام الإفطار بعد نومة قد تطول أو تقصر، كما نواصل زيارة المزارات.

زرت شهداء أحد صحبة محمد فال ولد بلال المدير السياسي للحزب الجمهوري الحاكم وكذلك أحمد ولد بدي الأمين العام للجنة الوطنية لليونسكو والآسيسكو والأليسكو، صعدنا جبل الرماة، لكن فرقة من "لمطاوعه" طردتنا وأنزلتنا منه قسرا، اتجهنا إلى جبل أحد ولما بدأنا بصعوده تصدت لنا فرقة أخرى من "لمطاوعه".

زرت مسجد القبلتين ومسجد قباء كما قمت بزيارات عديدة لبقيع الغرقد، الذي قالوا إنه يضم أكثر من عشرة آلاف من الصحابة.

مرة كنت أزور البقيع مع شنقيطي مقيم بالمدينة فدلني على بعض المدفونين فيه: قبر السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضي الله عنها، مالك بن أنس...

**هموم الجالية الموريتانية**

في إحدى الليالي دعينا لحفل عشاء أقامه بعض رموز الجالية الموريتانية المقيمين في المدينة المنورة وبعد العشاء عقد اجتماع يبدو أنه روتيني، يجريه رئيس الوفد مع الجالية كل سنة لطرح مشاكلهم، فكانت أهم مشكلة بل معضلة تعاني منها الجالية في المدينة - ألح كل المتدخلين على وجود حل لها – كانت معضلة ومشكلة خروج الموريتانيات المقيمات سافرات في الشارع غير منقبات مثل السعوديات، ولقد ألح الجميع على أن تلك المعضلة الكبرى لا تقبلها السلطات السعودية.

وأضاف بعضهم أن الملحفة التي تلف فيها الموريتانية جسدها غير كافية، فلا بد أن تستر وجهها بقناع لا يترك إلا الحدقتين.

فظهر لي أن جاليتنا في المدينة أحوالها على ما يرام بل لا تعاني من مشكلة.

إني لم أتدخل لأن تلك المعضلة – حسب ما يصورونها – من اختصاص السادة العلماء الذين في الوفد، أما وظيفتي في الوفد فلا الدولة قالتها لي قبل أن أسافر ولا أنا سألت عنها، ولأن كل الأمور قبل حلول الوفد للبلاد المقدسة كانت من اختصاص سعادة القنصل وبقيت كذلك إلى حد تلك الساعة، ولا أعتقد أنها ستستلم منه.

خرجت من الاجتماع وأنا أكرر بيت ابن عاشر:

وما عدا وجه وكف الحره يجب ستره كما في العوره

تصورت أن بعض الذين ينزلون معي من البناية التي أقيم فيها الحفل يقول:

إن لف المرأة الموريتانية جسدها بالملحفة يطابق تماما تعليمات الفقيه ابن عاشر إخوته رحمه الله.

**حب الوصول إلى مكة المكرمة وحب البقاء في المدينة المنورة**

لقد كان سعادة القنصل أخبرني أن الوفد الرسمي سيغادر المدينة المنورة إلى مكة المكرمة في بداية ليل السابع من ذي الحجة، بعد أن يكون كافة حجاجنا الفضلاء غادروا المدينة المنورة.

وقد انتظرنا تلك الليلة بفارغ الصبر وقلوبنا أيضا معلقة بالمدينة المنورة الحبيبة إلى نفوسنا.

وحانت ليلة السابع من ذي الحجة، وبعد صلاة المغرب قمنا ببعض الإجراءات كقص الأظافر والاستحمام، ثم انتقيت مع عدة أشخاص باصا صغيرا خرج بنا من المدينة ولم نلبث أن وصلنا إلى ذي الحليفه التي يسمونها الآن أبيار علي.

ذو الحليفة أو أبيار علي: هي الميقات الذي يحرم منه أهل المدينة، وهناك أكملنا ما علينا القيام به: الاستحمام وصلاة ركعتي الإحرام.

أما أنا، فقد قمت بإكمال ما قمت به - في المدينة منذ نصف ساعة -: من إكمال خصال الفطرة، وبعد الاستحمام صليت ركعتي الإحرام ولبست ثياب الإحرام "الإحرامات" واعتليت الباص المتوسط الحجم، وبمجرد أن تحرك صدحت بالتلبية بعد عقد نية الإحرام بالحج.

سلك الباص المتوسط طريق الهجرة يخترق كتل الظلام الجاثمة على ذلك الطريق السيار الرائع الذي تبرز وسطه بقع ضوء تمثلها قطع معدنية لماعة تم تثبيتها في جسم الطريق توضح للسائق الممر الذي عليه أن يسلكه، لأن طريق الهجرة السيارة مكون من اتجاهين وكل اتجاه يتكون من محاور.

إن القطع المعدنية تبرز من بعيد كنجوم في سماء الليل الدامس وهي بذلك تساعد السائق على المزيد من تمييز الطريق واكتشافها.

إن طريق الهجرة لا تختلف كثيرا عن طريق - المدينة جدة - لأن كل منهما محمي بسياج على جنبيهما، لكن رحلة طريق جدة – المدينة أكثر وضوحا لأنها كانت نهارية، مما هيأ لي المزيد من الاكتشافات والمقارنات.

أما طريق الهجرة فكانت رحلتنا عليها رحلة ليلية.

وخارجة من مزايا ضوء القمر بطبيعة الحال، لأننا في ليل السابع من ذي الحجة، وبعد مرور الساعات الأولى من الليل، لم يعد للقمر وجود في السماء.

كنت وسط الباص في الطرف القصي الأيمن من الصف الثاني، أمامي صف واحد من المقاعد جلس عليه السائق وبجانبه أحمد ولد بدي الذي يشغل الأمين العام للجنة الوطنية لليونسكو والآليسكو والأيسيسكو، والفقيه لمرابط ولد محمد الأمين، مدير التوجيه الإسلامي، ويبدو أنهما ناما وكان رأس الواحد منهما يميل في اتجاه الآخر من حين لآخر يحدثان حركات بديعة.

طال الليل وطالت المسافة ولكنني قاومت بداية رافضا الاستسلام للنوم مواصلا التلبية مع تجدد الأحوال، ولكن الليل طال وطالت الطريق.

أتذكر مرة أن أحد الركاب قال لي - وهو يشير إلى جسم يقترب منا بعد أن طالته أضواء السيارة -: انظر اللافتة التي نقترب منها، فقرأت على اللافتة: "العشيرة" فعلمت أنها المنطقة التي وقعت عندها (...).

وكانت آثار أمطار سقطت منذ فترة وجيزة لا تزال بادية، ممثلة في بعض الغدران، ولكن المسافة طالت وطالت الرحلة.

أتذكر مرة أخرى أن أحد الركاب وهو الوزير السابق والسفير ابن الطلبه، لاحظ أن إحرامي العلوي وقع طرفه على رأسي – وأنا على ما يبدو في حالة غفوة – فأيقظني قوله:

انتبه يا أخي، "إحرام الرجل في رأسه وإحرام المرأة في وجهها".

شكرت له ذلك الفعل، ولكن الرحلة طالت...

كان توقف السائق قليلا.

وفي حدود الواحدة زوالا تراءت لنا مباني مكة المكرمة فتوقفنا عن التلبية التي كنا نكررها مع تجدد الأحوال.

دخلنا مكة المكرمة، حيث توقف بنا الباص المتوسط الحجم أمام بناية عادية في حي الحفائر فوق جبل "امْطَشَّشْ"، هكذا قالوا لي، كما أضافوا أن المنزل ملك لشنقيطي.

وفي الحال بادرت صحبة جماعة من ضمنها الفقيه لمرابط محمد الأمين بالتوجه إلى المسجد الحرام لتأدية طواف القدوم والسعي، وأثناء الطريق علقوا لي على السعي، حيث قالوا:

إذا استطعت إلى ذلك سبيلا، وإذا لم تستطع القيام بالسعي بعد طواف القدوم فلن تؤديه إلا بعد طواف الإفاضة، لأن السعي بين الصفا والمروة لا يؤدى إلا بعد طواف واجب.

وطواف القدوم واجب، أما طواف الإفاضة فهو ركن داخل في ماهية الحج وينعدم الحج بعدم تأديته.

دخلنا المسجد الحرام وبدأنا الطواف بعد أن وضعنا أقدامنا على الخط الأحمر المرسوم بالرخام، ينطلق هذا الخط من زاوية البيت التي ألصق فيها الحجر الأسود وينتهي عند اتصال جدار المسجد بالأرض.

كان الفقيه لمرابط ولد محمد الأمين أوصاني بأن لا أنزع يدي اليسرى عن منكبه حتى لا تحول موجة بشرية بيننا فأتيه بين الطائفين مما سيؤثر على تأدية الطواف كما يرام.

لقد قالوا لي عدة مرات إن النظري: أي معرفة الأحكام مسألة مفيدة للحاج، لكن الحج تطبيق وبالتالي علي أن أعتمد على من طبق الحج ويكون هذا المطبق أكثر جدارة إذا كان فقيها.

لذلك ألصقت يدي اليسرى بمنكب الفقيه لمرابط ولد محمد الأمين لأقوم بكل ما سيقوم به فأودي طواف القدوم والسعي بين الصفا والمروة على أكمل وجه.

سمينا وكبرنا وانطلقنا لتأدية أشواط الطواف السبعة. وقبل الانطلاق أعاد علي الفقيه لمرابط تأكيد أن أظل خلفه واضعا يدي على عاتقه حتى أؤدي الأشواط بسلام.

ولما كان الشوط الأول سارت الرياح بما لا تشتهي السفن، حالت بيني وبينه موجة بشرية لم أستطع تفاديها ولم أعد أراه لقد ضاع بين تلك الأمواج البشرية، أما أنا فلا تسأل عن حالي بداية.

لقد تمالكت واستجمعت ما بقي لي من شجاعة لأتحكم في ما بقي لي من عقل.

تذكرت أني في بداية تأدية واجب وليس ركنا وأن الإخلال بالركن وعدم تأديته هو الذي يفسد الحج، فاعتمدت على ما درست من أحكام الحج وخاصة دراستي لتلك الأحكام في انواكشوط، وما درست وطبقت في المدينة،.

تابعت المسير أؤدي أشواطي بسلام وكنت أحاول في كل شوط أن أقبل الحجر أو ألتمسه ولكن بدون جدوى وأكتفي بالإشارة إليه بيدي وأقبلها.

وكان قول أحد الفقهاء يخفف عني وطأة عدم تمكني من تقبيل الحجر الأسعد أو التماسه، حيث قال لنا ذلك الفقيه في إحدى المرات وهو يشرح لنا كيفية الطواف وما علينا أن نقوم به: إن التماس الحجر الأسعد مندوب وحفظ النفس واجب.

بعد أن أكملت الأشواط اتجهت إلى خلف مقام إبراهيم وصليت ركعتين متجها غربا، وهي المرة الأولى في حياتي التي أصلي فيها وأنا اتجه فيها للغرب.

بعد أن فرغت من الركعتين اتجهت شرقا وسألت عن الصفا والمروة فدلني عليهما بعض المحسنين فاتضح لي أنهما دخلتا في المسجد.

وقفت فوق الصفا لأني أعلم مسبقا أنها هي التي يبدأ منها السعي وانتظرت لحظة حتى صعد معي بعض القادمين من الطواف، سميت وقرأت الآية: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}.

بدأت أشواط السعي أهرول بين الأخضرين، أحسب المشي بينهما شوطا، وكان الازدحام يشتد أحيانا خاصة فوق المروة وعند اجتياز الأخضرين.

أنهيت السعي، وطلعت عائدا إلى المطاف أبحث عن زمزم وقبل أن أنزل إلى المطاف التقيت بالوزير والسفير السابق، ابن الطلبة العلوي البريني وكان من الجماعة التي جاءت معي من المدينة في الباص المتوسط - والذي كان نبهني أثناء الليل على وقوع طرف إحرامي على رأسي - ويبدو أنه انتهى لتوه من الطواف ويتجه إلى السعي.

قال:

* هل سعيت؟

- نعم.

* الحمد لله، أدع لي بالخير

فدعوت له وواصلت طريقي إلى زمزم.

اهتديت لزمزم وشربت من مائه حتى ارتويت وصببت الماء على جسمي.

خرجت من المسجد أبحث عن بعض من جاء معي أرافقه حتى لا أتحير عن مقر الإقامة. لكنني لم أوفق، فعلمت أن التيه في ذلك اليوم هو قدري.

خرجت من المسجد وأنا أعلم أنني أتيت من الغرب وتذكرت أيضا أننا سلكنا طريقا ضيقا واحدا، فخفف عني ذلك.

وفي هذه أسعفني هذه المرة تخصصي الجغرافي، فأنا أثناء الطريق إلى المسجد الحرام كنت أدقق النظر في البنايات والمعالم التي تحيط بالطريق الذي نسلكه.

وأكثر ما بقي عالقا في ذهني تلك السيارة التي اعترضت طريقنا متوقفة على جانب الطريق الأيمن في سفح تل صخري صعدت منه الطريق وانحدرت في منحدر ينتهي بساحة المسجد الحرام.

ولأنني أثناء اجتيازنا لها، فكرت في المكابح التي تمنعها من الانزلاق إلى الأسفل ومقارنتها بمكابح سياراتنا في انواكشوط التي لا تستطيع التحكم في سيارة جاثمة على أرض منبسطة.

خرجت من ساحة المسجد في اتجاه الغرب أبحث عن الطريق التي أوصلتنا إلى المسجد أدقق النظر حتى لا أسلك طريق آخر في الجهة الغربية أو الشمالية أو الجنوبية الغربية.

فكان أن تبينت المنحدر الذي نزلنا منه إلى ساحة المسجد، وقلت في نفسي إذا صعدت على قمة التل ووجدت السيارة فمعنى ذلك أنني في الاتجاه الصحيح، أما إذا لم أجدها فذلك يعني أنني تهت مرة أخرى.

ولما كنت أتقدم صاعدا تذكرت أن السيارة يمكن أن يذهب بها صاحبها ولا أجد ذلك الدليل الذي عولت عليه.

ترددت بداية وعولت على الرجوع لأتأكد من الطريق أو أجد دليلا أصحبه ولكنني عزمت وتوكلت وصعدت قمة التل، فأثلج صدري أن السيارة لا تزال جاثمة في مكانها.

واصلت طريقي ولما خمنت أن المسافة التي تفصلني عن مقر الإقامة انتهت أو أوشكت على النهاية، توقفت أدقق النظر في البنايات المطلة على جانبي الطريق.

لمحت شخصا محرما خمنت أنه من الحجاج الموريتانيين، اقتربت منه فعرفني.

لقد كان يقف قرب باب مقر الإقامة.

بتنا ليلتنا تلك فوق جبل "امطشش" وكان علينا أن نترك مكة المكرمة صباحا متجهين إلى منى لقضاء يوم التروية "ثامن ذي الحجة".

وصلنا منى ضحى، وفي منى قيض الله لي شابا من أصول موريتانية لا أعرف هل هو مقيم أم متجنس، ولم أجد الشجاعة لأسأله عن وضعيته.

المهم أنه شاب ذكي لبيب عارف بالمنطقة وبتقاليد السعوديين ولهجتهم، ظل يتجول معي في منى، وكان بعض حجاجنا وضعوا في مخيم قرب نفق يسمى نفق "لَمْعَيْصْمِ" واحتج الحجاج أنه خارج وادي منى، بقيت أتجول مع هذا الشاب نواسي الحجاج الموريتانيين المحتجين.

وحاولت أن أصلي في مسجد الحيف بمنى فوفقت مرة ومرة لم أوفق لكثرة المصلين.

وفي الصباح الباكر غادرنا منى إلى عرفات بواسطة باص صغير، أظنه ملك للقنصلية، فكنا من أوائل المغادرين، ولذلك وصلنا عرفات في وقت مبكر.

في عرفات تحولت إلى شبه سائح أريد أن أشاهد كل شيء وأقف في كل منطقة، أريد أن أشبع عيني من ذلك المكان المقدس الذي طالما اشتقت للوقوف به.

كان الجو لا يزال هادئا والوقت مبكرا، قليلون نسبيا هم الذين وصلوا بعد، تجولت في صعيد عرفات: المسجد، جبل الرحمة، الوادي، نتوءات صخرية كثيرة، منبسطات أرضية...

ولكني لم ألبث أن لاحظت أن كل الأماكن التي كنت أمر بها شبه خالية لا أجتازها حتى يتم شغلها بالباصات والخيام، ولم يمض وقت طويل حتى سد الأفق بالباصات والخيام وجموع البشر:

الوادي أو المنخفض الواسع الذي تطل عليه المرتفعات، والذي كان منذ قليل هادئا أضحى وجود موطئ قدم فيه من الصعوبة بمكان.

فجأة ماتت عندي نزعة حب الاطلاع التي ربما أستمدها من تخصصي الجغرافي وتحولت إلى حاج هاله الموقف:

الله أكبر، هذا صعيد عرفات، في التاسع من ذي الحجة، هذا يوم الحج الأكبر.

لقد كانت وسائل الإعلام حدثتنا ونحن لا نزال في المدينة أن جموع الحجاج ستزيد في هذه السنة على المليون لأن وقفة عرفات صادفت يوم الجمعة وأن الكثير من الخليجيين سيتدفقون على بيت الله الحرام والمشاعر المقدسة.

إذن، أنا الحاج القادم من بلاد مساحتها مليون وثلاثين ألف كلم مربع تسكنه أقل من ثلاثة ملايين، أقف على أحد نتوءات صعيد عرفات وأشاهد لأول مرة أمامي أكثر من مليون إنسان يحتشدون في هذا الوادي أو المنخفض الواسع.

الله أكبر، سبحانك ربي ما أعظمك...

ومع بداية ارتفاع الشمس أخذت زخات من المطر الصناعي تداعب أجسامنا بلطف وهدوء.

إن منظرها ترتفع إلى السماء ثم تهوي إلى أسفل متناثرة على شكل رذاذ مطري يزيد الحاج راحة واطمئنانا.

إن السعوديين حكومة وشعبا يبذلون الغالي والنفيس من أجل راحة وسلامة الحاج جزاهم الله خيرا.

فقد قيل لنا إن ذلك المطر الصناعي المركب في صعيد عرفات: من صنع محسن سعودي؛ وأضاف آخرون أنه من صنع صاحب مجموعة دل البركة التي تملك مصرف البركة في انواكشوط.

وحيث كان صاحب ذلك المشروع: الدولة، أو خصوصي فهو مشروع سينال صاحبه إن شاء الله أجرا كبيرا.

كنت أتجول والدعاء يصاحبني، ولقد حولت وقوف عرفة إلى تجوال في عرفة طيلة أول النهار، وكنا وضح لنا موقع بطن وادي عرنه الذي لا يجوز الوقوف فيه.

وربما كان البعض من الحجاج اعتبر أن وقوف عرفة معناه أن يظل الشخص واقفا لا يتحرك، أو يتحرك حركة محدودة، أو أن أحد مواضع عرفة أفضل للوقوف من مواضعه الأخرى.

مررت أثناء تجوالي بأحد البدو يمسك بزمام جمل وقد شد فوق جمله وسيلة للركوب لم أعرف اسمها، تجمهر حوله بعض الحجاج الذين يبدون أنهم لا يعرفون الإبل، يدفع أحدهم مبلغا نقديا ويُرْكِبه الرجل على الجمل لحظة وينزله.

فقلت في نفسي:

* "ما هكذا يا سعد "تركب" الإبل".

ما هكذا يكون ركوب الجمال!

ليتني فيها جذع .

بعد صلاة الظهر جمعا وقصرا وبعد تطواف، أخذت الشمس تتجه نحو الغروب ودلني البعض على الصخرات الكبار في منحدر جبل الرحمة، لكني واصلت صعود جبل الرحمة أريد أن أصل إلى عمود من الاسمنت نصب فوق قمته.

وكانت جماعات من "المطاوعه" تذود الحجاج عن لمس ذلك العمود في معارك طاحنة.

عولت على أن أشارك في المعركة الدائرة لأصل قمة الجبل، وكانت المعركة شرسة، ولكني استخدمت أساليب الإلهاء والمراوغة، فكنت أتقدم خطوة كلما حمى الوطيس بين "لمطاوعه" وجماعة تريد الصعود وانشغلوا عني تماما، أصعد ما أعطاني وقت انشغالهم، وعندما تبدأ المعركة أتوقف في مكاني جامدا كالصخرة، حتى وقفت إلى جانب العمود على قمة الجبل.

ووصلتني الكلمة الطيبة الخالدة من أحد "لمطاوعة":

* "هذا جماد لا ينفع ولا يضر".
* أعرف يا سيدي ولكني أستند عليه لأسترد أنفاسي.

لست أدري هل سمعني المتطوع أو فهمني، ولا يهمني ما إذا كان سمعني أم فهمني، بقدر ما يهمني أن لا تبقى نقطة في صعيد عرفات الطاهر المقدس أستطيع الوصول إليها إلا وفعلت.

تحركت قليلا فوق قمة الجبل وكان الوقت مساء والجو أقرب إلى معتدل، ومن كان في مكاني يطل على أزيد من المليون من البشر في ذلك الموضع رافعين أيديهم إلى الله العلي القدير الرحمن الرحيم، يريدون محو ذنوبهم وقضاء حاجاتهم، لاشك سيرى منظرا يثير الاطمئنان والرهبة والخشوع في آن واحد.

نزلت من قمة الجبل واتجهت إلى الصخرات الكبار في منحدره وواصلت الدعاء حتى حان وقت النفرة بعيد غروب الشمس.

نزلت أبحث عن رفقة، فوجت جماعة من ضمنها فضيلة العلامة محمد المختار كاكيه والشاب ذي الأصول الموريتانية الذي لا أعرف هل هو سعودي أم مقيم وآخرين.

تناولنا نعلا متآكلا من "الرئة" ثبتناه على عود، اتخذنا منه علما صرنا تحته حتى لا يفرقنا الزحام.

نفرنا سيرا على الأقدام ولكن النفرة طالت، ليس طولا في المسافة ولكن لشدة الازدحام.

إن مجموعتنا مجموعة من الشباب القادرين على السير على الأقدام وسط ذلك الازدحام الشديد باستثناء فضيلة العلامة الشيخ كاكيه الذي أصر على أن ننفر سيرا على الأقدام.

كنا نخشى أن لا يستطيع مواصلة السير راجلا، ولقد قال لنا وهو الذي حج عدة مرات، إن النفرة سيرا على الأقدام أسرع.

سرنا واشتد الازدحام والوقت ظلاما وكان الظلام يزداد حلكة ربما بسبب الغبار الذي تثيره أقدام المشاة.

ومع تحرك الباصات على طرق السيارات من حولنا لم نعد نسمع شيئا.

طالت النفرة ولكننا سرنا وكان سيرنا أقل صعوبة من الذين نفروا خلفنا، وقد كنا أول النافرين ومع تقدمنا في السير لاحظنا أن الازدحام يزداد، ربما لسرعة آخرين نفروا بعدنا وأدركونا أو اجتازونا.

وبعد برهة وصلنا إلى مزدلفة، فقادنا العلامة الشيخ كاكيه إلى قرب المشعر الحرام فحططنا الرحال.

صلينا المغرب والعشاء جمعا وقصرا، واشترينا من أحد المطاعم المتنقلة الذي نزل بقربنا عصائر وطعاما وشايا محليا.

بعد أن تعشينا حاولنا النوم بعض الوقت ولكن اتضح أن ذلك غير ممكن.

لقد نزلنا قرب المشعر الحرام والمكان شبه خال لأننا كنا في طلائع النافرين.

ومن بعيد - كنت ألاحظ على ضوء المصابيح الكهربائية المثبتة على أعمدة طويلة تغطي مساحة مزدلفة -: حجاجا يصعدون مرتفعات تحيط بمنخفض مزدلفة من الجنوب الشرقي إذا كنت أضبط الجهات جيدا.

وما أن استقر بنا الحال حتى سد منبسط مزدلفة الفسيح بالحجيج، ولم تعد بقعة من تلك المرتفعات تطلب المزيد من البشر.

وكانت أضواء المصابيح الكهربائية المنتشرة هنا وهناك توضح المزيد من المشهد المهيب.

توجد بقربنا جدا دورات للمياه ولكن الطوابير حولها يخبر منظرها: الحاج الذي يأتي لصف متأخرا أنه ينتظر المحال لطول الصف.

وكان الحجاج يأتون أفرادا وجماعات وينزلون قربنا، متبعين سلوكا بسيطا:

يحمل الحاج حصيرا صغيرا مطويا في طرفه كيس مطاطي سد الكيس بسدادة صغيرة يزيلها الحاج وينفخ الكيس فيمتلئ بالهواء ويسده بنفس السدادة فيتحول الكيس إلى وسادة لصيقة بالحصير، فينشر الحاج حصيره ويصلي وينادي على المطعم المتنقل قربه فيزوده بما طلب من الطعام والمشروبات فيتناول طعامه ويتكئ.

استمر الحال على هذا المنوال وبعد ساعتين لم يعد أحدنا يستطيع أن يتقلب في متكئه لأن الرجال سدوا عليه كل لمعة من السطح قربه.

فارتأينا أن نواصل السير بعد أن استرحنا، ولكن مثلنا الشعبي يقول: "عينك عين صاحبك"، وجدنا أن الكثيرين تصرفوا تصرفنا.

سرنا في زحام عادي بداية، ولكن استمر يتطور مع تقدم الليل واقتراب الصبح، وعند طلوع الشمس وصلنا مشارف منى.

ولكننا لم نصل إلى جمرة العقبة "الجمرة الكبرى" إلا في حدود العاشرة صباحا بسبب الازدحام الشديد وضيق وادي "منى" المكتظ بالمنشآت ومخيمات الحجاج.

ضاع علي رفاقي في زحمة الرمي، وقد استطعت بتوفيق من الله أن أرمي بصعوبة، لأننا نحن المالكيين يجب علينا أن نصل حوض الاسمنت الدائري الذي يحيط بالعمود الاسمنتي الذي ثبت فوق الجمرة، وعلى الحاج المالكي أن يضع مرفقه فوق حافة الحوض، ويرمي عمود الاسمنت بهدوء، وعليه أن يتأكد من أن الرمية ضربت العمود وأنها استقرت وسط الحوض.

إن على الحاج أن يجمع الحصوات السبعة التي سيرمي بها جمرة العقبة في يومه الأول: من مزدلفة أثناء حطه الرحال وغيرها لا يجزئ.

لقد استطعت أن أصل الحوض وأن أثبت مرفقي على حافته، أنهيت الرمي وجالدت الجموع عائدا، وبعد أن خرجت وأصبحت حرا في الفضاء الطلق، بحثت عن أي أحد أعرفه فلم أجده.

واصلت السير إلى مكة على أقدامي، ولكنني لم أخرج من زحمة الجمرات حتى التحق بي الشاب المهذب ذي الأصول الموريتانية والذي لم أعرف هل هو سعودي الجنسية أم موريتاني مقيم.

ولم أعرف هذه المرة من أين طلع علي؟

هل كان يراني من بعيد؟

أم هو مجرد الصدفة.

واصلنا السير حتى دخلنا أحد الأنفاق الذي يختصر المسافة بين منى ومكة المكرمة، يخترق جوف مرتفعات صخرية تسد الطريق بين مكة المكرمة والمشاعر المقدسة.

إنها أنفاق تقتصر المسافة إلى حد كبير، تمر وسطها طرق معبدة فسيحة.

أنفاق مضاءة مكيفة، ولقد خرجت من ذلك النفق لأول مرة وأنا أتفهم لماذا أطلق ملوك السعودية على أنفسهم خدام الحرمين الشريفين.

إنهم فعلا خدام للحرمين الشريفين، لقد برهنوا على هذه الميزة.

وصلنا مكة المكرمة وطفنا بالكعبة المشرفة طواف الإفاضة "سبعة أشواط" وصلينا ركعتي الطواف، ثم اتجهنا إلى الحلاقين الذين ينتشرون قرب المسجد الحرام فتحللنا التحلل الأكبر.

شعرت بارتياح كبير لأني أديت فريضة الحج، ذلك لأني أديت الأركان الأربعة بنجاح: الإحرام، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، وطواف الإفاضة، الذي انتهيت منه لتوي.

وكذلك الواجبات التي تتخلل هذه الأركان دون أن أعجز عنها ولله الحمد أو يلزمني دم.

لم يبق لي بعد تلك اللحظة من الواجبات إلا أيام منى الثلاثة: "إحدى ثلاثيات الحج التي فساد إحداها يجبره الدم، أما الأركان الأربعة فهي المشكلة لأنها لا يجبرها الدم".

اتجهنا إلى مقر الإقامة في جبل "امطشش" وهناك قضينا المقيل ولكننا غادرنا مكة قبل حلول الليل عائدين إلى منى، لوجوب قضاء الليل فيها، لذلك كنت في مساء ذلك اليوم في جوف حافلة متجهة إلى منى.

قضيت أول الليل أتجول مع الشاب المهذب ذي الأصول الموريتانية الذي لم أعرف هل هو سعودي أم موريتاني، صعدنا عدة مرتفعات وكان يدربني على النطق باللهجة السعودية كما هي:

مثلا: نفق لمعيصمي علي أن أنطقه: "نفك" بكاف معقودة والأنفاق: "الأنفاك"، وذلك بدل "غار" بالحسانية، وأن أخاطب نوعا من الأشخاص بكلمة يا بويْ بدل يبويَ الحسانية و"طال عمرك" بدل إطول عمرك الحسانية و"جو" بدل الداخل الحسانية و"نفرْ" بدل أشخاص الحسانية.

وإن السعودي عندما يغضب على زميله أو قريبه يقول له: "واللَّ ما أشرب "اكْهَيْوتَكْ" أي والله لن أشرب قُهَيْوَتَكَ.

وهو تصرف شبيه بتصرف الموريتاني الغاضب على آخر وهو قوله: والله ما انْذُوقْ عندكم شِ" أي والله لن أذوق عندكم شيئا.

وأن السعودي يقول: "يا رجَّال يا طويل العمر" بدل يا الراجل يَلِّ إطول عمرك الحسانية...

نزلنا من أحد المرتفعات فاتجه بي إلى أحد مخيمات الحجاج الموريتانيين، وفي طريقنا إلى ذلك المخيم حدثني الشاب ذي الأصول الموريتانية الذي لم أعرف هل هو سعودي أم موريتاني: أن الكثير من الحجاج الموريتانيين سيحاول أن يتخلف عن العودة إلى بلادنا وسيبقى في وضعية غير قانونية عندما تنتهي مدة التأشيرة مكونا بذلك مشكلة للمملكة العربية السعودية وللقنصلية الموريتانية، وهذا ما جعل السلطات السعودية تهتم كثيرا بوضعية الأشخاص وضبط المتخلفين عن العودة لأنهم في حالة غير قانونية.

قلت له:

- هذا عمل خطير غير أخلاقي ولا حضري، ولعله مازال عالقا بمواطنينا كنمط من أنماط الحياة في الماضي، حيث لا توجد حدود بين الدول العربية ولا أوراق هوية ولا نظم قانونية تضبط الحياة داخل كل دولة وتنظم علاقات الدول فيما بينهم.

لاشك أنهم يعتقدون أنهم شناقطة في القرون السابقة لنشأة الدول الوطنية الحديثة.

لقد كان الحجاج آنذاك يأتون إلى الديار المقدسة من بلادنا بصعوبة فائقة من استطاع منهم العودة يعود ومن أراد منهم البقاء في الأراضي المقدسة يبقى...

شخصيا سأعفي السلطات السعودية من ملاحقتي وأعود في الرحلة التي أتيت فيها.

تأثر الشاب وعلق:

* كيف يا سيدي النائب!

أنا لا أعنيكم بكلامي

* أعرف يا أخي المحترم، ولا إلى ذلك قصدت، إنما أقصد أني سمعت كثيرا عند بعض الفقهاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: اللهم اجعل في كل أرض لأهلها شاما.

ومهما يكن من جهلي لعلم الحديث وصحة الأحاديث من غيرها، فإني لا أشك أنك تعلم وكل المسلمين يعلمون أن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم مستجاب، ومن علامات تلك الإجابة أن المسلمين يتوزعون الآن في أنحاء العالم وأعتقد أن من علامات صحة هذا الحديث إذا كانت نسبته للرسول صلى الله عليه وسلم صحيحة: هو عدم تكدس قرابة المليار ونصف المليار من المسلمين الآن في مكة المكرمة بجوار بيت الله الحرام والمدينة المنورة، بجوار أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم.

ارتاح الشاب وتبسم وتساءل:

* ماذا تريد أن تقول أيها السيد النائب المحترم؟
* أريد أن أقول إنني في هذه اللحظة أتدرج معك من هذا المرتفع في واد منى، في طريقنا لزيارة بعض حجاجها في هذا المكان المقدس الذي تهفو نفس كل مسلم إليه ويفضل السكن فيه، ورغم ذلك:

تتراقص أمامي الآن أمواج المحيط الأطلسي، وأكاد أشاهد أضواء الفجر تنعكس على رمال كثبان ازبار البيضاء.

إنني أتيقن أن حبيبات الطرفاء لبست حلتها من قطرات الندى في أول الليل وبعد لحظات ستنعكس عليها أضواء الفجر فتتلألأ كحبات الجوهر في ليل قمري حالم لا يعكر سكونه سوى تكسر أمواج المحيط الهادئة على تلك الرمال الناعمة.

وهوامش الكثبان الغربية باذراع بيتوعها وأراكها وما يتناثر فوقها من أحياء:

تواصل تلك الكثبان ضغطها الأبدي على الهوامش الشرقية لسهل آفطوط متآزرة مع هوامش كثبان ازبار الشرقية على مناطق التلاقي مع آفطوط، إنهما الآن يواصلان ضغطهما الأبدي على هوامش آفطوط في ثورة عارمة على تمزيقه لوحدتهما، ينظران إليه كدخيل حال بينهما إلى الأبد.

إن تلك الربوع ومناظرها يشكل الابتعاد عنها ضغطا على قلبي إذا لم أطر إليها...

انفجر الشاب:

* الله، الله، يا حاج، إنك في هذه اللحظة نظمت قصيدة رائعة!

إنك حلقت بعيدا في أجواء الوطن!

أيها السيد النائب لا تتعجل قبل انقضاء يومين، ولا إثم عليك إذا تعجلت بعد يومين، أما الغد وبعد الغد فالتعجل قبل انقضائهما يوقع صاحبهما في الإثم.

* أعدك، لن أتعجل إلا بعد انقضاء اليومين الأولين من أيام منى.

وصلنا المخيم وسلمنا على بعض المعارف فيه، ثم عدنا إلى دار الإقامة في المنحدر الشرقي من المرتفع الذي يحيط بواد منى من الغرب، إلى الجنوب الغربي من الجمرات قرب مسجد الخيف.

\* \* \*

كان اليوم الأول من أيام التشريق يوما عاديا، لأن رمي الجمرات فيه ليس صعبا، ولكن بقي اليوم الثاني أي يوم التعجل هاجس يؤرقنا، لأن بعضا من الجماعة التي أشاطرها المسكن حدثنا كثيرا عن صعوبته وخطورته لأن الكثير من الحجاج مذاهبهم الفقهية لا يجزئ عندها الرمي قبل الظهر، ومن لم يستطع إنهاء الرمي ومغادرة منى في بقية من النهار ليس بإمكانه أن يتعجل.

المهم أنه حان اليوم الثاني ورميت بعد صلاة الظهر بسلام وغادرت منى سيرا على الأقدام، حيث لا تزال بقية طويلة من النهار.

لكنني افتقدت صديقي الشاب ذي الأصول الموريتانية الذي لم أعرف هل هو موريتاني أم سعودي، حتى أنني نسيت اسمه.

لقد كان من الضروري لي أن يكون إلى جانبي لأنه رافقني عدة مرات في جولات مماثلة وكان يشرح لي المناظر ويسمي الأحياء وحتى المنشئات التي نمر بها.

واصلت السير راجلا وسط الأنفاق وفوق المرتفعات وأحيانا في المنخفضات سالكا طريق المشاة حتى وصلت مكة، وبعد توقف طويل في المسجد الحرام واصلت السير إلى مقر البعثة وبدأت أخطط برنامج ألعمرة:

كم سأقوم به من عمرة عن نفسي وعن أمي وأبي رحمهما الله.

في الغد ذهبت إلى التنعيم وهو من مواقيت أهل مكة، حيث كان بعيدا نسبيا من مكة القديمة ولكن التوسع الحضري للعاصمة المقدسة تجاوزه بحيث أصبحت أحياء منها خلفه، أحرمت منه وقمت بعمرة عن نفسي وواصلت المشوار حتى قمت بعمرة عن أمي وأخرى عن أبي:

أذهب إلى التنعيم وأغتسل وأصلي ركعتي الإحرام ثم أحرم وأطوف سبع مرات بالكعبة وأصلي ركعتي إنهاء الطواف خلف مقام إبراهيم وأسعى سبع مرات بين الصفا والمروة وأعيد حلاقة رأسي للتحلل.

ومع تكرار العمرة لم يجد الحلاق في رأسي ما يحلقه فكانت آلته تمر على جلدة رأسي ولا أعرف هل تجد بذور شعر أم لا؟

ومرة أخرى قمت بعمرة من ميقات أهل العراق، إلى الشرق من مكة.

\* \* \*

بقينا أياما قليلة بمكة أكثرها في المسجد، إما في صلاة وإما في طواف...

لم يكتب لي أن تجولت في أنحاء مكة مثلما تجولت في المدينة، لست أدري لماذا، وربما لانشغالي في أوقات كثيرة بالعمرة.

لكن الجزء الشرقي منها والجنوبي الشرقي تعرفت على أكثره وذلك لوقوعه في طريق المشاعر المقدسة وكذلك جزؤها الشمالي الذي يقع فيه التنعيم.

لقد كانت أيامنا في مكة المكرمة أياما حافلة بالنشاط الذي جاء الحاج من أجله، فهي أيام العمرة والصلاة في المسجد الحرام والطواف بالكعبة المشرفة.

ولما كنا في المدينة المنورة كان البعض يمرر على أسماعنا أن درجة الحرارة في مكة مرتفعة وكذلك التلفزيون الرسمي السعودي يعطي إرشادات لتجنب الإصابة بضربة الشمس.

ولكن أيامنا في مكة ومنى ويوم عرفة كانت أياما عادية والحرارة فيها غير مرتفعة.

**من مكة المكرمة إلى عروس البحر الأحمر**

قمت بطواف الوداع وغادرت مع آخرين مكة المكرمة ذات مساء سالكين الطريق السريع الذي يربط بين مكة المكرمة وجدة عروس البحر الأحمر كما يسمونها.

نزلنا في دار القنصلية وفي الغد بدأت أتجول في مدينة جدة الكبيرة الجميلة، وقد لفتت انتباهي تلك النافورة التي ترمي بالمياه على ارتفاع علوي شاهق وتعود إلى الأرض متناثرة، ويبدو أنها متصلة بمياه البحر الأحمر.

ومن مزارات مدينة جدة قبر يقال إنه لأمنا حواء.

ومما يجذب الحجاج إلى جدة أيضا أسواقها العامرة التي يتزود منها الحاج ببضائع متنوعة، ويختلف الحجاج من حاج إلى آخر:

بعضهم يأخذ منها هدية السرور فقط.

وبعضهم يأخذ هدية السرور وبضائع تساعد على استرجاع تذكرة الحج.

بعضهم يبحث عن تمثيل صناعات في بلادنا...

وقد زرت صحبة الأمين العام لوزارة التوجيه الإسلامي سوقا في الجنوب الغربي من جدة، يكاد يكون في أقصاها يكثر فيه التجار الأفغان.

جرى حديث بيني مع أحدهم يتقن دارجة عربية يمزجها بكلمات من الفصحى، لاحظت أن الأطراف الظاهرة من جسمه تكسوها آثار جروح غائرة، فكان ذلك سببا للحديث، حيث سألته:

* هل كنت ضمن المجاهدين الأفغان؟
* نعم، لقد ساهمت في تحرير أرضنا من الغزاة الروس.
* كيف حال افغانستان الآن؟

أرجو أن تكون أحوالها تحسنت بعد الحرب وبدأ أهلها مسيرة التنمية.

* إنها على العكس مما تمنيت لها.
* لماذا يا أخي المجاهد؟
* لأنها محكومة الآن بزمرة من الأشرار.
* لا تقل ذلك، هذا الرجل الطيب قلب الدين حكمت يار.
* هذا رجل شرير.
* وأحمد شاه مسعود، البطل العظيم!
* هذا أيضا شرير.

وصرت أتطرق إلى أسماء قادة الجهاد الأفغاني واحدا بعد واحد فينتقد، فعلمت أنه غير راض عن مرحلة ما بعد تحرير وطنه من الاحتلال الروسي كما سماه.

كانت أيامنا في جدة قليلة لأن موعد رحلتنا كان يقترب وهكذا تحركنا إلى المطار ليلا وغادرنا تلك البلاد المقدسة عند الإسفار الأعلى لننزل بمطار انواكشوط مساء نفس اليوم.

انواكشوط في: يونيو 1994م

الشيخ بن أحمدو

1. ( ) لم أتذكر اسمه أثناء كتابة هذه السطور. [↑](#footnote-ref-2)
2. () الدولة: في مصطلحات المحظرة تطلق على مجموعة من التلاميذ يدرسون نصا واحدا يكون درسهم اليومي موحدا. [↑](#footnote-ref-3)
3. () "مَشِي" من الفعل: مشى يمشي مشيا، وربما أخذ المصطلح من صيغة الأمر من هذا الفعل، وهي مصطلح حساني يطلق عندهم على شيخ المحظرة الذي يستطيع تدريس أي فن يدرس في المحظرة بصفة عامة، فهذا النوع من المدرسين إذا جاءه طالب جديد يريد أن يدرس كتابا معينا لا يسأله عن اسم الكتاب الذي سيدرس ليعلم هل يستطيع أن يُدرسه أم لا لأنه مسبقا يستطيع تدريس كل الكتب المقررة في المحظرة بدون استثناء، فيقول للطالب: "مشي" أي قل، فيبدأ الطالب في قراءة بداية نصه الذي يريد دراسته ويبدأ الشيخ المحظري في شرح ذلك النص.

   وهناك نوع من أشخاص المحاظر يستطيع تدريس نصوص بعينها ولا يستطيع تدريس نصوص أخرى، فهذا النوع من الأشخاص المحظريين، في عرفهم، ليس من أشياخ "مشي" لأنه سيسأل الطالب عن أي نص سيدرس لأنه لا يستطيع تدريس كل النصوص.

   أما شيخ "مشي" فلا حاجة له بسؤال الطالب عن نصه الذي يريد دراسته، ذلك لأنه يستطيع تدريس جميع النصوص بدون استثناء. [↑](#footnote-ref-4)
4. () كتاب الشيخ خليل بن إسحاق المالكي المعروف بمختصر خليل في الفقه المالكي، كتاب ذائع الصيت لدى المحاظر وهو من الكتب المعتمدة في الدراسات العليا، وقد اهتم به الدارسون اهتماما كبيرا فقسموه إلى جزأين كبيرين السفر والباب، وقسمه مؤلفه إلى أبواب وفصول، لكن تلاميذ المحاظر قسموا كل فصل إلى "أقفاف" وطبقا لذلك فالقف جزء قليل من الفصل يدرسه التلميذ خلال يوم، ويسمى أيضا عندهم بـ"الكتبه" أي مقرر ذلك اليوم من مختصر خليل، وقد تكثر الأقفاف في فصل إما لطول الفصل أو لصعوبة فهمه. [↑](#footnote-ref-5)
5. () "الكزرة" بكاف معقودة، من القسر، أي الشيء المأخوذ أو الممارس قسرا أو انتزاعا، وقد أصبحت مفهوما شائعا لدى الموريتانيين يطلقونه على الأراضي العمومية أو المملوكة للغير التي يحتلها آخرون رغبة في الحصول عليها بصفة نهائية، خاصة إذا كانت أراضي عمومية.

   ومع تطور تلك الممارسة، تطور المفهوم ليشمل أي ممارسة يقوم بها البعض ضمن أمور يعلم مسبقا أنه لا يملك صلاحية القيام بتلك الممارسة. [↑](#footnote-ref-6)
6. () آل عمران، الآية: 128. [↑](#footnote-ref-7)
7. () القصص الآية: 56. [↑](#footnote-ref-8)
8. () ربما قصد بعبارة "أخباره ماه ياسره" الصلاة التي يوضحها مشهور مذهب الإمام مالك، رواية ابن القاسم التي تخلو من البسملة والتأمين والتعوذ والوقفات وتكتفي بسلام واحد مجرد من عبارة ": ورحمة الله تعالى وبركاته". [↑](#footnote-ref-9)